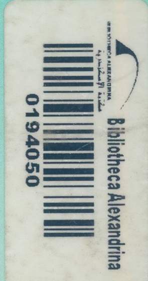
جذور الارهاب

أيام سليم الأول في مصر





حلمي النمنم




جذور الإرهاب
أيام سليم الأول في مصر

جذور الإرهاب أيام سليم الأول فى مصر
المؤلف: حلمى النمنم
الغلاف : عمر جهان
خطوط: حامد العويضى

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٥/٢٠٠٢
I.S.B.N 977 - 5617 - 07 - 3

الطبعة الأولي
ديسمبر ١٩٩٥

الناشر
دار النهر للنشر و التوزيع
١٤ ش مصدق - الدقى ت : ٣٦١٥٣٨٣

التوزيع فى سوريا
دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ص.ب. ٦٣٨٤
ت: ٣٣٢٤٩١٤

التوزيع لبنان
دار الفارابى
بيروت ص.ب. ١١/٣١٨١
ت : ٣٠٥٥٢٠

أعمال الصف والكمبيوتر
المركز العربى للترجمة والنشر
ت : ٥٧٥١٨٨٤

التجهيزات الفنية والطباعة
دار الطباعة المتميزة
ت : ٢٩٧٩٥٤٢


جذور الإرهاب
أيام سليم الأول في مصر
حلمي النمنم


للنشر
والتوزيع

مقدمة
لماذا الحديث مجدداً
عن سليم الأول والعثمانيين

ظهر بيننا -مؤخراً- نفر من المثقفين والكتاب يدافعون عن الدولة العثمانية باعتبار أنها «دولة مفترى عليها»، وأنها كانت دولة «الخلافة الإسلامية» التى حافظت على «الخلافة» حتى مطلع القرن العشرين، وأنها كانت دولة الشريعة الإسلامية التى يجب أن تعود إلى حيز التطبيق فى حياتنا.. وأنها وأنها..، ويذهب هؤلاء إلى أن السلطان عبد الحميد-مثلاً-أقصى عن الخلافة لأنه رفض إعطاء فلسطين لليهود ليقيموا عليها دولتهم. ويتناسى هؤلاء أن السلطان عبد الحميد نفسه هو الذى أصدر منشور عصيان عرابى بينما كان (جيش عرابى والشعب المصرى) يواجهان الإنجليز. ومساهمة هذا المنشور فى وقوع مصر فى براثن الاحتلال البريطانى؛ إذ أن إعلان «الخليفة»، بماله من ثقل روحى فى معظم النفوس، أدى إلى التشكيك فى مصداقية عرابى، ومن ثم انفض عنه عدد غير قليل من أنصاره، وتزعزعت ثقة معظم المصريين فيه..

وهناك كثيرون يأخذون بدعاوى المدافعين عن الدولة العثمانية أو العثمانيين الجدد والداعين إلى الأخذ بالمنهج العثمانى فى الحكم؛ ولذا، فقد اخترت أن أقف أمام لحظة من التاريخ المصرى؛ نمر عليها مروراً سريعًا دون أن نتوقف أمامها بالفحص والدراسة، وهى لحظة دخول العثمانيين إلى مصر، فقد تعلمنا فى الكتب المدرسية أن « سليم الأول» هزم المماليك الطغاة فى «مرج دابق» ثم «الريدانية» بعدها مباشرة، وأنه بذلك «فتح» مصر والشام.. ولم يكلف السادة المربون أنفسهم عناء شرح كيف تم هذا «الفتح» وما الذى وقع خلاله، وكيف كانت مصر قبله، ثم كيف أصبحت بعده!!

ويلفت النظر هنا أننا نجد فى المكتبة العربية عدة كتب حديثة مؤلفة أو مترجمة عن الشخصيات البارزة فى التاريخ العثمانى.. مثلاً: محمد الفاتح وسليمان القانونى.. ولكننا لا نجد سوى كتيب واحد باللغة العربية عن سليم الأول[1] .

ويرجع عدم الاهتمام بدراسة الدولة العثمانية، خاصة لحظة دخولها إلى مصر والمنطقة العربية، إلى أسباب عدة؛ أبرزها أن المؤرخين الإسلاميين ومؤرخي العصور الوسطى يدخلون الدولة العثمانية ضمن فترة التاريخ الحديث؛ ومن ثم فإنهم لا يشغلون أنفسهم بها؛ بل ويرون أنها خارج اختصاصهم؛ فيدرسون الخلفاء الراشدين ثم الدولة الأموية فالدولة العباسية ويتوقفون عند دولة المماليك.

أما المتخصصون فى التاريخ الحديث فيرون أن عملهم يبدأ من «الحملة الفرنسية» على مصر سنة ١٧٩٨ ؛ وقد يعودون إلى محاولة «على بك الكبير» قبل الحملة بحوالى ربع قرن، للاستقلال بمصر عن الإمبراطورية المتهالكة ؛ ملقين بمهمة دراسة العثمانيين على زملائهم من مؤرخى العصور الوسطى..!!

وهكذا كانت النتيجة أنه لا هؤلاء درسوها ولا أولئك. واكتفى فقط ببعض العبارات عنها فى الكتب المدرسية التى تصورها على أنها دولة الفتح العظيمة ودولة الخلافة القوية!! وإذا تطوع أحد بالحديث المطول عنها، فإنه يذكر أمجاد هذه الدولة فى محاولة اقتحام البلدان الأوروبية.. وعلى كل حال، لا يذكر أحد شيئاً عما أحدثته فى مصر- خاصة منذ عام ١٥١٧ . ولذا، فإنه حين بدأ تيار معين فى محاولة منه لتجميل الوجه العثمانى واستدعائه لحاضرنا؛ وجد هذا التيار أمامه الطريق سهلاً وميسراً؛ فالدولة العثمانية قُدمت للشباب على أنها دولة الفتوحات ودولة الشريعة الإسلامية والخلافة دون ذكر أى شيء آخر.

وأياً كان الرأى، فإن دراسة دخول الدولة العثمانية إلى المنطقة العربية هو جزء مهم من تاريخ وطننا وما تعرض له: ولذا، يجب أن تكون هذه الفترة موضوع اهتمامنا جميعاً.

وهناك سبب آخر هام- فيما أعتقد- هو ربط البعض منا بين بعض الممارسات فى التاريخ الإسلامى والإسلام نفسه؛ وهؤلاء يتصورون أننا حين نتحدث عن ظلم سليم الأول للمصريين واستيلائه على أموالهم وديارهم فإننا بذلك نمس الإسلام ذاته.. ولذا، فهم حين يتحدثون يذكرون فقط ما يعتبرونه مفاخر العثمانيين مثل وصول جيوشهم إلى أبواب فيينا وفتح القسطنطينية؛

استانبـول فيما بعـد؛ ويغـضون الطرف عما دون ذلك.

والحق أن إخواننا الذين يتباكون على الدولة العثمانية لا يتجاهلون فقط الممارسات البشعة للعثمانيين فى بلادنا حين وطأوها أول مرة، بل ويتجاهلون حقيقة أخرى هى أن الكفاح والجهود التى بذلها المصريون والعرب فى تاريخهم الحديث والمعاصر إنما كانت معظمها للخلاص من القهر ومن التخلف العثمانى الذى مازلنا نعانى بعض آثاره إلى اليوم! حاول على بك الكبيرجهده للاستقلال بمصر، ثم جاءت الحملة الفرنسية بقيادة «نابليون»؛ تلك الحملة التى أوضحت العجز العثمانى عن حماية المنطقة؛ ووصل محمد على إلى حكم مصر وقام بجهوده الجبارة لإعادة بنائها وتحديثها؛ وحينذاك نجح الأوربيون بالتواطؤ مع الخليفة العثمانى فى القضاء على هذه الجهود.. وتأتى بعد ذلك مرحلة «أحمد عرابى» ورفاقه ومساندة خليفة المسلمين (العثمانى) للبريطانيين ضد المصريين.. بل إن الذين يتحدثون بفخر عن أن دولة الخليفة رفضت تسليم فلسطين لليهود، يتجاهلون ويتناسون أن «السلطان» هو الذى منح اليهود بعض الامتيازات فى دخول فلسطين ويتجاهلون ويتناسون أنه فعل أكثر من ذلك حين عرض على قادة الحركة الصهيونية أن يمنحهم «سيناء»(٢) ليؤسسوا عليها «الوطن القومى» وأن الذى اعترض هو المعتمد البريطانى كرومر بالإضافة إلى تراجع قادة الصهيونية.. وحين استردت مصر «طابا» مؤخراً فقد وضح من الوثائق أن دولة الخلافة كانت قد أرادت اقتطاعها من مصر سنة ١٩٠٦.

***

اخترت تحديداً دراسة الفترة التى قضاها «سليم الأول» فى مصر؛ وهى ثمانية أشهر إلا أسبوعًا كما حددها ابن إياس. وفى هذه الفترة،وضع «سليم» بذور وأسس الحكم العثمانى فى مصر. وهو فى هذه الشهور قلب وجه الحياة فيها تمامًا.. جاءها دولة مستقلة وامبراطورية واسعة.. زاهرة وعامرة.. ولم يتركها إلا «ولاية» تتبع استانبول.. ولاية عمها الخراب وملأتها الأحزان. ورغم أنه سيحكمها باسم الإسلام والشريعة، فإنه ملأها ظلماً. ولا شك أن دراسة فترة كهذه تفيد فى

بيان حال مثل هذه النوعية من الدول وهذا الشكل من الحكم الذى يسعى البعض إلى جرنا واقتيادنا إليه.

ابن إياس هو المؤرخ الأساسى لتلك الفترة. والواقع أنه قدم عن هذه الفترة صفحات مؤثرة غاية التأثير فى الجزء الأخير من كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» حيث عاصر تلك الأيام وعايش فظائعها واكتوى بأحزانها. كان هذا المؤرخ يرى ظلم المماليك ويستشعر أن دولتهم تستنفد إمكانيات النهوض والإصلاح العسكرى والسياسى؛ وهكذا اختلف الأمراء وتصارع الجند ولم ينتبهوا إلى الإعصار القادم من خلف الحدود؛ فأخذوا يتقاتلون على الجاميكة والعلونات وسائر الامتيازات المادية الأخرى وعم فسادهم وانتشر. ثم رأى ابن إياس جحافل سليم تأتى لتهين مصر والمصريين وتعاملهم جميعاً كأسرى أذلاء لا كمواطنين؛ واعتبر سليم وجنده مصر ضيعة مملوكة لهم، لا وطناً يجب الحفاظ عليه.. فسود لنا هذا المؤرخ النابه صفحات تقطر ألماً لتبقى شهادةً على جرم العثمانيين.

وعلى أية حال، فقد قابلتنى صعوبات كثيرة فى إعداد هذه الدراسة أبرزها قلة المادة العلمية الخاصة بهذه الفترة، ففيما خلا صفحات ابن إياس هناك شذرات متناثرة من تاريخ هذه الفترة فى الكتب التى أرخت أو درست هذه الفترة. وعلى سبيل المثال، فإن الشيخ ابن زنبل الرمال -مثلاً- يركز أكثر ما يركز على الصراع العسكرى بين المماليك وسليم الأول.

* * *

وهناك صعوبة تتعلق بتسمية عملية دخول سليم إلى مصر. فقد درج الكتاب والمؤرخون على تسميتها باسم «الفتح».. ابن إياس نفسه أسماها كذلك وإن كان قد عبر عن ذلك بقوله «فتحها بقائم سيفه»؛ ولكنه عاد ثانية ليصف الأمر بعبارة «الاستيلاء على مصر». أما ابن زنبل الرمال فلم يشغله هذا الأمر وقال «وقعة الغورى مع سليم» ورآها مجرد معركة حربية؛ بين سليم من جهة والغورى ثم طومان باى من بعده من جهة أخرى؛ معركة أدارها السلطان سليم باللعب على أوتار الخيانة والانتهازية ثم أدارها الآخران فخاضاها بنبل الفرسان.

ولكن الفكر السياسى المعاصر يعتبر أن أى استيلاء على أرض الغير بالقوة «احتلال». وبهذا المعنى، فإن العثمانيين قد احتلوا مصر.. وهذا التردد بين «الفتح» و«الاحتلال» يظهر حتى عند المتخصصين جميعاً. وعلى سبيل المثال، فإن المؤرخ الراحل د. محمد أنيس يصف تلك العملية بالفتح مرة ومرة أخرى يصفها بالاحتلال (٣).

وأنا من جانبى، لم أكن أتقبل وما زلت غير متقبل لاعتبار سليم فاتحاً حتى بالمعنى التقليدى؛ فقد كانت صفة الفتح تطلق على «الغزو» الذى يتم بهدف معلن هو (على سبيل المثال) تقديم الإسلام ونشره فى ربوع الأرض. وإذا ما أسمينا «سليم» بالفاتح، فإننا بذلك نكون قد ساويناه بشخصيات إسلامية كبرى مثل سعد ابن أبى وقاص، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد؛ وهذا لا يصح تاريخيًا. فحين غزا سليم مصر، كان المصريون مسلمين ويدينون بالمذهب السنى؛ وهو نفس الدين ونفس المذهب الذى كان يعتنقه العثمانيون.

ولكن هناك رأياً آخر يرى أن الأمر استقر على أنه،حين ينشب قتال بين دولتين مسلمتين ، يُعَدّ القائد المنتصر فاتحاً. وقد يكون فى ذلك مراعاة لا عتبار دينىّ.

وحين تحدثت مع أحد أبرز المهتمين بالتاريخ العثمانى (٤) قال لى إن الاحتلال هو ما يكون لسنوات قليلة مثل احتلال إسرائيل لسيناء. أما فى حالة مصر والعثمانيين فالأمر يتعلق بنحو أربعة قرون؛ فقد دخلوا مصر سنة ١٥١٧ وظلت مصر تتبعهم رسميًا حتى ١٩٢٣ حين وقع العثمانيون على معاهدة «لوزان». وصحيح أن بريطانيا قد أعلنت الحماية على مصر سنة ١٩١٤ ، ولكن تلك الحماية أسقطت تبعية مصر للعثمانيين من جانب واحد فقط..!!

وربما رأى البعض أننا إذا اعتبرنا دخول سليم إلى مصر احتلالاً لساوينا بينه وبين الاحتلال البريطانى لمصر. والحق أنه لا فارق عندى بينهما، فالثانى، أى الاحتلال الإنجليزى، هو نتيجة للتخلف والعزلة التى فرضها الفاتحون العثمانيون على مصر. والواقع أن وضوح الموقف لدى المصريين بخصوص الإنجليز واعتبارهم محتلين قد زرع فى الضمائر ضرورة رفضهم ومقاومتهم، والتباس

الأمـر فى حالة العثمانيين جعل من السهل تقبلهم.

فريق آخر يرى أن تسمية العثمانيين بالمحتلين سوف يغضب[٥] الأتـراك المعاصرين خاصة أنهم– الأتراك –يتمتعون بميول إسلامية عالية. ومع تقديرنا لذلك فإن الحقيقة التاريخية واضحة.

وعموما، فقد كان صعبًا علىّ أن أعتبر «سليم» فاتحاً كما أن جمهره الدارسين والمتخصصين لا يتقبلون بسهولة اعتباره هو والعثمانيين محتلين لمصر؛ ولذلك، فقد ارتأيت أن أطلق عليها اسماً وسطاً هو «الغزو»[٦] وقد كان ابن إياس قد استعمل أيضا صفة الغازى لوصف سليم الأول؛ حيث قال أكثر من مرة «الغازى سليم شاه» .. ويبدو أن هذه الصفة قد انتشرت بين عامة المصريين، فإلى اليوم تطلق كلمة «الغازى» ، فى بعض المناطق من الريف المصرى، على أى شخص يرتكب بعض أعمال «البلطجة» أو يمارس عمليات النهب العلنى.

وسوف يلاحظ القارئ أننى لم أتوقف أمام سير المعارك التى دارت بين قانصوه الغورى وسليم الأول؛ ثم بين طومان باى وسليم الأول؛ وما حدث فى هذه المعارك الأخيرة من الخيانة.. والحق أنه لولا خيانة «خاير بك» وجان بردى الغزالى ثم الشيخ حسن بن مرعيت لما استطاع سليم أن يستولى على مصر بسهولة؛ وربما لم يستطع أن يستولى عليها مطلقاً؛ كما أنه لولا خيانة محمد بك أبو الدهب لعلى بك الكبير (فيما بعد) لما استطاع العثمانيون القضاء على استقلال المماليك بمصر. ومن المفارقات أنه حين عجزت الدولة العثمانية عن أن تجد خائناً لها، فى صراعها مع محمد على وابنه القائد إبراهيم باشا، لجأت إلى الدول الأوروبية لتستعين بها على مصر، وكانت النتيجة معاهدة عام ١٨٤٠ التى فرضتها كل من إنجلترا وفرنسا على مصر لتعيداها إلى الحظيرة العثمانية؛ وليصبح تاريخها فى مصر قائمًا على استخدام الخونة أو التواطؤ مع الأجانب الأوروبيين «غير المسلمين» !!.

عموماً، لم أتوقف أمام سير المعارك؛ ذلك على اعتبار أن ذلك كان صراع جيوش؛ وكان كل ما يشغلنى هو الظلم والاضطهاد اللذين وقعا على عامة المصريين؛ هؤلاء الآمنين الذين عكفوا على الزراعة والبناء والتشييد وتركو أمر

الجندية والقـتـال للمماليك والمأجورين والمرتزقة والخونة فأسلموها إلى من أهانهم وخرب مصر ونهبها.

* * *

وأخيراً، فإننى أذكر أن هذا الكتاب الذى بين يديك ليس كتاباً فى التاريخ ولا يطمح لأن يكون كذلك؛ ولكنه مجرد قراءة فى لحظة تاريخية عاشتها مصر وعاشها أبناؤها؛ لحظة نتجاهلها باستمرار أو نهرب منها؛ ونسيناها فأنسيت؛ ثم جاء أخيراً بعض منا يحاولون تجميل هذه الصفحة ويطالبون باعادتنا ثانية وجرنا إلى مثلها.. متجاهلين أنها، حتى بمقياس ذلك العصر، كانت لحظة مهينة لمصر وللعرب وللمسلمين جميعاً!!

حلمى النمنم

هوامش المقدمة

* كل التواريخ الهجرية ومقابلها الميلادى مستخرج من كتاب «جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها» وضعه المستشرق الكبير: ف. ويستنفيلد ترجمة: دكتور عبد المنعم ماجد – عبد المحسن رمضان، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠، القاهرة.

(١) «الدر المصان فى سيرة المظفر سليم خان» –تأليف على بن محمد اللخمى الأشبيلى؛ تحقيق د. هانز إرنست؛ دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢ –يقع الكتيب فى حوالى ٢٤ صفحة؛ ويقدم عرضاً عاماً لحياة سليم الأول.

(٢) راجع د. محمد حسين هيكل «شخصيات مصرية وغربية»؛ فصل مصطفى كامل؛ ص ١٠٩/١٠٨ –طبعة دار المعارف ١٩٨٠. ويذكر د. هيكل أن الخديوى عباس حلمى الثانى، حين تولى حكم مصر عام ١٨٩٢، أرادت «الدولة العلية» أن تخرج سيناء من حدود مصر؛ ولكن انجلترا تمسكت بأن حدود مصر هى كما وردت فى فرمان ١٨٧٣ الممنوح من السلطان العثمانى إلى الخديوى إسماعيل.. ثم تكررت محاولة الدولة العلية فى تقليص حدود مصر حينما قامت قواتها سنة ١٩٠٦ باحتلال قرية «طابا» والسيطرة عليها باعتبارها ليست من الممتلكات المصرية؛ ولكن «كرومر» هدد بأن القوات البريطانية ستتدخل لتعيد هذا الجزء إلى الحدود المصرية.. إنها مفارقة ومأساة تاريخية بحق ولكن هكذا كانت دولة الخلافة بالنسبة إلى مصر.

(٣) د. محمد أنيس. «مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى» –معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٢.

(٤) هو الأستاذ الدكتور عبد الوهاب بكر رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب –جامعة الزقازيق.

(٥) هذه الآراء والأفكار ذكرت خلال مناقشات عديدة لى مع عدد من المتخصصين فى التاريخ واللغة التركية.

(٦) سبقنى إلى هذه التسمية د. قاسم عبده قاسم فى كتابه «اليهود فى مصر.. من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى» –دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧؛ حيث قال: من «الفتح العربى» حتى «الغزو العثمانى».

الفصل الأول

وحى بالغزو والاحتلال

«إن الله تعالى قد أوحى إلىّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين». «أنا خليفة الله فى أرضه».

سليم الأول

من رسالة بعث بها إلى طومان باى

لم تكن الحروب العثمانية فى أوربا تحتاج إلى تبرير أو تفسير أمام الجنود والمقاتلين، فيكفى أن هذه المناطق الأوروبية هى «ديار الكفر»، ومن ثم فإن قتالها نوع من الجهاد الواجب على المسلمين. وحين كان العثمانيون يحققون الانتصارات داخل أوربا، لم يكتفوا بإعلان الفرح والسعادة داخل تركيا فقط بل كانوا يرسلون إلى الحكام المسلمين «سلاطين مصر» يعلمونهم ليفرحوا هم أيضاً ويعلقوا الزينات باعتبار أن الانتصار فى النهاية هو نصر للإسلام والمسلمين. وكثيراً ما زينت القاهرة وابتهجت ووزع سلاطينها الهدايا لمثل هذه الانتصارات.

وحين كانت الجيوش العثمانية تتحرك بين الحين والآخر لمناوشة الدولة الصفوية «الشيعية»، فإن السلاطين العثمانيين لم يكونوا أيضاً بحاجة إلى أى تبرير أو إلى اختلاق الذرائع والبحث عن أسباب، ذلك أنهم دأبوا على اعتبار الشيعة أيضاً «ملاحدة».

ولكن الأمر اختلف كثيراً حين أراد السلطان سليم الأول أن يغزو مصر، فقد كان بحاجة إلى البحث عن تفسير أو فتوى دينية لتتم له مثل هذه العملية. فقد كانت مصر دولة إسلامية، يعتنق أهلها المذهب السنى وهو نفس المذهب الذى يعتنقه العثمانيون، ومن ثم فلا مجال للطعن فى عقيدتهم ودينهم. يضاف إلى ذلك أن سلطان مصر كان يحمل لقب «خادم الحرمين الشريفين»، وكان منوطاً به رعاية الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية، كما كان يرعى أيضاً الأماكن المقدسة فى فلسطين والتى كانت جزءاً من الشام.. وكان على سلطان مصر أن يرعى الحجيج، وأن يخرج كسوة الكعبة من القاهرة سنوياً. وهذه أمور كانت تضفى على مصر وحكامها نوعاً من المسئولية والهيبة الدينية. أخيراً، كانت مصر قد أصبحت مقر «الخليفة». وفى المحصلة النهائية، فإن مصر كانت صاحبة دور حضارى ودينى بالنسبة للعالم الإسلامى كله يفوق بمراحل الدور العثمانى، ولذا

فإن الإقدام على تحريك الجيوش إلى مصر كان أمراً يحتاج إلى تبرير دينى قوى.

* * *

كان سليم يعد جيوشه ويضع الخطط للتحرك تجاه مصر، وكان «قانصوه الغورى» سلطان مصر يستشعر ذلك تماماً، مع أن الرسائل الودية كانت متبادلة بينهما. ففى أول محرم ٩٢٢ هجرية (الثلاثاء٥ فبراير ١٥١٦م)، أرسل سليم إلى الغورى يطمئنه فيها تماماً أنه لا ينوى ولا يفكر أبداً فى غزو مصر أو الشام يقول «.. ويعلم الله، وكفى به شهيداً، أنه لم يخطر على البال قط طمع فى أحد سلاطين المسلمين أو فى مملكته أو رغبة فى إلحاق الضرر به، لم يحدث ذلك..» ويضيف تأكيداً جديداً بقوله «.. الشرع الشريف ينهى عنه..» [(١)].

ولكن الغورى كانت تصله أنباء الاستعدادات التى يقوم بها «سليم». وكانت لكل طرف منهما عيون على الآخر ينقل إليه المعلومات. ولما تأكد الغورى من مقصد سليم، أرسل إليه فى الشهر التالى مباشرة (شهر صفر) رسالة قال له فيها «.. من المسلم به أنك جمعت العساكر من البر والبحر، وقد علمنا أنك عزمت على تسييرهم علينا، فتعجبت نفسنا الشريفة غاية التعجب، لأن كلانا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام، وتحت حكمنا مؤمنون وموحدون ليسوا خارجين كالصوفية الذين أفتى العلماء بقتلهم..».

ولم يكن الغورى يريد الدخول فى قتال مع سليم فهو يقول له فى نفس الرسالة «.. إذا كان يحدث من جانبنا سبب يدعو للقيام بهذه الأعمال المذكورة فأخبرنا نعمل على دفعه لئلا تصيب علاقتنا المسلمين بضرر، وإلا فلا داعى لذلك قط..». ويبدو لنا أن الغورى كان حريصاً على حقن دماء المسلمين قدر الإمكان وهناك واقعة مهمة تؤكد ذلك أثبتها المؤرخ أحمد ابن زنبل الرمال الذى عاصر تلك الفترة، فقد كانت البنادق هى السلاح الناجع فى أيدى الجنود العثمانيين، وهى التى ساعدتهم كثيراً على سرعة الإطاحة بجيش الغورى ولم تكن مستعملة فى مصر. وقد حدث قبل ذلك بسنوات أن جاءه رجل مغربى بهذه البندقية وأخبره أنها ظهرت فى بلاد «البندق»، وأنه قد استعملها الجنود الروم وكذلك بعض العرب

فطلب إليـه الغـورى أن يدرب بعض مماليكه عليـهـا، فـفـعل الرجل.. ولما أتموا تدريبهم، ذهبوا أمام سلطانهم يطلعونه على ما تعلموه وعلى نتائج السلاح الجديد، فأطلقوا أمامه بعض الطلقات ورأى مفعولها وسرعة القتل التى تحققها، وهناك انزعج الغورى وقال للمغربى «.. نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى.. وقد قال سبحانه وتعالى: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم».. فقال المغربى «من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية» [٢].

والموقف يكشف عن أن الغورى كان قد استنفد أية امكانية لتطوير جيشه وتسليحه. ويكشف عن تكوين الرجل – ما لم يكن يتجنب القتال – فقد كان يقرض الشعر [٣]، ويجيد العربية والتركية، ويجلس مع الفقهاء، يتحاور معهم ويناقشهم فى قضايا دينية وفقهية مختلفة.. وبالتأكيد، فإنه لم يكن يتناقش معهم فى الأمور السياسية والمخاطر التى تحيق بالدولة [٤]. كان تكوينه تكوين شاعر أو رجل دين لا تكوين قائد سياسى وعسكرى فى لحظة فاصلة من لحظات التاريخ.

فى استنابول كان الأمر مختلفاً، فقد أكمل سليم استعداده للتحرك إلى مصر. وقد استطاع قاضى عسكر الأناضول «كمال باشا زاده» أن يجد نبوءة قرآنية تتيح للعثمانيين دخول مصر، من خلال تفسير معين للآية القرآنية «ولقد كتَبْنا فى الزَّبورِ مِن بَعدِ الذِّكْرِ أنَّ الأَرْضَ يرِثُها عِبادىَ الصَّالحُون» [٥].

وجاء التفسير على النحو التالى: لفظ «الأرض» فى الآية الكريمة تعنى «مصر» قياساً على أن «الأرض» وردت أكثر من مرة فى القرآن الكريم وكانت تشير إلى مصر. أما عبارة «فى الزبور»، فقد فهمها قاضى عسكر على أنها بمعنى «الزمهرير» أى الصيف شديد الحرارة. أما جملة «من بعد الذكر»، فهى بحساب الجُمَّل [٦] تساوى ٩٢٢ وهو نفس العام الهجرى الذى كان يجرى فيه الاستعداد لغزو مصر. أما «عبادى الصالحون» فقد فسرها القاضى العثمانى بأنها تعنى العثمانيين [٧].

وكان مجمل التفسير أن العثمانيين سوف يدخلون مصر فى صيف ٩٢٢

هجرية [٨] . وقد أسعد ذلك التفسير «سليم الأول» كثيراً وشجعه أكثر وأكثر على مزيد من الاستعداد والإقدام على المعركة.

ولما انتهى سليم الأول من الاستعداد، عقد اجتماعاً لكبار رجال دولته يطلعهم على تحركه تجاه مصر والشام، فقال له الصدر الأعظم «هرسك زاده أحمد باشا» وكان قد أسر فى مصر من قبل «.. عندما أسرت فى مصر سمعت من كبار المسئولين الرسميين أنهم لا يدخرون وسعاً فى العمل على محو الإمبراطورية العثمانية كلية..».

وكان يحضر هذا الاجتماع المفتى العثمانى الأكبر «مفتى الأنام شيخ الإسلام على زنبلك» والذى ظل صامتاً طوال الاجتماع يستمع إلى ما يقال.. فلما استشف وجهات النظر، ورغبة السلطان وقادته فى الهجوم، قال «يعتبر ظهور العداء من جانب العدو داعياً للحرب..» وهكذا اعتبرمفتى الأنام كلام الصدر الأعظم حقيقة، وبمقتضاه صار المصريون أعداء للعثمانيين.. وبعد هذه المقدمة، جاءت الفتوى التى كان ينتظرها سليم ويريدها، نطق بها المفتى واضحة وقاطعة، حادة كنصل السيف لا تقبل أى لبس ولا تحتمل أى شك.. قال «.. أفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها، لأن أهلها قطاع طرق والحرب والقتال معهم غزو وجهاد؛ قاتلهم غاز ومرابط، والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد..» [٩] .

أصبح قتال المصريين غزواً وجهاداً، وقاتلهم مرابط، أى فى الدرجة العليا من الجهاد والإيمان، أما المقتول فسيكون شهيداً.

وبينما تأهب سليم للتحرك «الشرعى» كما قال المفتى، فإذا به قبل يوم واحد من تحركه (تحرك يوم الخميس ٤ جمادى الأولى ٩٢٢هـ، ٥ يونية ١٥١٦م) يرسل هدايا إلى الغورى مع رسالة يقول فيها «غاية ملتمسنا من حضرتكم العلية إمدادنا بصالح دعواتكم فى أطايب أوقاتكم ..» ويضيف داعياً «.. والله تعالى يديمكم لإصلاح البلاد وتسلية العباد ويرزقكم عمراً يستوعب مراتب الأعداء ويختم بيوم التنادى بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى..».

ولما اقترب الجيشان لحظة المواجهة، أرسل سليم إليه قائلا له «.. إنه قد بات

واضحاً جلياً بعون الله كل ما قمت به من فتنة وفساد..». وهكذا كشفت الأوراق وصار اللعب على المكشوف وبلا مواراة.

وفى ضحى الأحد ٢٥ رجب ٩٢٢ ه (٢٤ أغسطس ١٥١٦م)، التقى الجيشان فى «مرج دابق»، وحدث ما هو معروف من خيانة «خاير بك» أمير حلب لسلطانه الغورى، وانضمامه إلى صفوف سليم الأول، الأمر الذى سارع بهزيمة الجيش المصرى وقتل السلطان الغورى، وتفتت جيشه. وسيطر سليم على الشام وفاز بما كان يحمله الغورى من الذهب والفضة والأموال التى كان قد خرج بها من مصر ليدفع منها رواتب الجنود وعطاياهم ويسير بها مقتضيات الحرب.. وقدرت الأشياء بحمولة خمسمائة جمل.

* * *

ووصلت الأنباء الحزينة من «مرج دابق» إلى القاهرة، مع الأمراء المتقهقرين، فاجتمع المماليك على تعيين «طومان باى» سلطاناً يخلف الغورى، وكان الغورى حين خرج من القاهرة قد عين «طومان باى» نائب غيبة، أى يحل محله فى غيبته. ولكن طومان باى تردد فى أن يتقبل السلطنة بعد الغورى، وظل لمدة خمسين يوماً ممتنعاً.. كان الرجل يرى حرج اللحظة، ويعرف مدى الضعف فى صفوف المماليك، وشرههم للمال بينما الخزائن خاوية وانصرافهم عن القتال واضح. ومع ذلك، تدخل العلماء لإقناعه– خاصة الشيخ أبو السعود الجارحى (أحد المتصوفة) [١٠]. وقبل طومان باى السلطنة، «تولاها غصباً عليه» [١١]. وربما كانت هذه هى الحالة الأولى فى مصر الإسلامية التى يشارك فيها المصريون فى اختيار حاكمهم، ولن يتكرر ذلك إلا بعد قرابة ثلاثة قرون فى تولية محمد على حاكماً على مصر سنة ١٨٠٥م.

* * *

وبمجرد أن حصل سليم على الانتصار السهل فى «مرج دابق»، تردد (كما تذهب بعض الروايات) فى أن يزحف على مصر، إلى أن أقنعه بذلك خاير بك.. وفى رواية أخرى أنه كان قد بدأ يستعد، لكنه كان يعرف أن الزحف على مصر

والاستيلاء عليها لن يكون بسهولة الاستيلاء على الشام، فإن كان قد استطاع أن ينفرد بالغورى فى الصحراء المكشوفة، فالأمر داخل مصر مختلف تماماً.

بدأ سليم فى إرسال الرسائل إلى «طومان باى» يعرض عليه أن يقع فى تبعيته وأن يرسل إليه الجزية والمكوس. ولنقرأ بعضاً مما جاء فى تلك الرسائل، فهو يقول مهدداً «.. لن يفلت شخص من قبضة طلاب الدين والدولة سواء كنتم فى مصر أو فى الحجاز أو فى اليمن..».. وهكذا يمتد إلى التهديد كل المناطق التابعة لدولة المماليك.

وفى رسالة ثانية بعث بها من مدينة القنيطرة السورية، يصل التهديد والغرور بسليم مداه، ولنقرأ جيداً ما يقوله «..من مقامنا السعيد، إلى الأمير طومان باى.. أما بعد، فإن الله تعالى قد أوحى إلىَّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين..».

وهو هنا لا يخاطب «طومان باى» كسلطان لمصر، ولا يذكر ذلك أبداً، بل اكتفى بنعته بالأمير فقط. وإذا كان سليم قد بدأ تحركه إلى مصر بالبحث عن فتوى تيسر له غزو مصر، فإنه قد التبس عليه الأمر الآن وتصور أن ما يفعله ليس بفتوى ولكن بناء على وحى من الله تعالى، وإذا كان قد ذكر الوحى فى أول الرسالة، فإن الأمر يتطور فى نهايتها فيقول بوضوح «.. أنا خليفة الله فى أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين..».

ثم كان أن التقى الجيشان فى معركة «الريدانية»، والتى انتصر فيها سليم وبمساعدة الخونة أيضاً.. فإن كان سليم قد انتصر على الغورى بفعل خيانة «خاير بك» أمير حلب، فإنه هنا أيضاً انتصر بفعل خيانة أمير غزة «جان بردى الغزالى»، ثم تقدم سليم حتى دخل مصر وأمسك بطومان باى بدس وخيانة حسن بن مرعى أحد مشايخ العربان فى أقليم البحيرة.. وسقطت مصر فى يده.

هوامش الفصل الأول

(١) قام بترجمة هذه الرسالة إلى العربية د. أحمد فؤاد متولى فى كتابه «الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته».

(٢) راجع القصة بكاملها فى «واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى» فى محفوظة ابن زنبل؛ نشرها عبد المنعم عامر بعنوان «آخرة المماليك» سنة ١٩٦٢.

(٣) للغورى ديوان جمعه وحققه شعبان محمد مرسى ونشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ٢٦، عدد نوفمبر ١٩٨٠.

(٤) حول مناقشات الغورى، راجع د. عبد الوهاب عزام «مجالس السلطان الغورى»، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١.

(٥) الأنبياء، آية ١٠٥.

(٦) حساب الجُمَّل: ضرب من الحساب يكون فيه لكل حرف من الحروف الأبجدية عدد؛ فالهمزة يقابلها العدد (١) والباء (٢) والجيم (٣) والدال (٤).. والضاض (٨٠٠) والظاء (٩٠٠) والغين (١٠٠٠). هذا فى الترتيب المشرقى أما فى المغربى فهناك اختلاف فى المقابل الحسابى.

(٧) راجع فى ذلك د. أحمد فؤاد متولى، «الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية المعاصرة له» ص ١١٥ – الناشر دار النهضة العربية سنة ١٩٧٦.

(٨) لم تصدق هذه النبوءة حرفيًا فقد دخلوا مصر فى العام التالى.

(٩) راجع أحمد فؤاد متولى – مرجع سابق.

(١٠) د. عبد المنعم ماجد، طومان باى.

(١١) التعبير لشمس الدين محمد بن طولون فى «مفاكهة الخلان» ج ٢ – طبعة الحلبى١٩٦٤.

الفصل الثانى

دوافع الغزو

حلم عثمانى قديم بالسيطرة على مصر

تعددت الأسباب التى رصدها المؤرخون لقيام سليم الأول بغزو مصر وإسقاط دولتها. هناك وجهتا نظر أساسيتان. الأولى تجسد الرؤية المصرية، والثانية تعبر عن الرؤية العثمانية. تركز الرؤية المصرية على عنصر «الخيانة» فى القضية مجسدة فى الأمير «خاير بك» أمير حلب [١] الذى أتاح له وجوده فى حلب، القريب جغرافياً من استانبول، سهولة الاتصال بسليم الأول والتعامل معه. ويذهب ابن زنبل الرمال إلى أن خاير بك هو الذى أغرى «سليم» بدخول مصر وظل وراءه ملحاً حتى شرع فى التنفيذ؛ ذلك أن «سليم» كان متخوفاً - كما يذهب ابن زنبل - من فكرة دخول مصر، وكان ميالاً إلى التوقف عند حدود الشام، وكانت لديه مخاوف فى أن يواجه الجيش المملوكى داخل حدود مصر. ولا يمكن أن ننكر الدور الذى لعبه خاير فى تقديم معلومات خاطئة للغورى عن سليم، فقد صور «سليم» فى رسائله إلى سلطانه على أنه لا يفكر ولا يريد غزو الدولة المملوكية، وأن كل همه وشاغله يتمثل فى مواجهة الدولة الصفوية، وفى الوقت نفسه فإنه كان يرسل إلى سليم بأدق المعلومات حول أوضاع الجيش المملوكى وقدراته الحقيقية ومدى استعداده للقتال. وفيما بعد، أثناء معركة «مرج دابق»، انسحب خاير بك بقواته من المعركة فجأة، وهو ما خلق ثغرة ضخمة داخل صفوف الجيش المملوكى.. وكانت الهزيمة. ولا يمكن أيضاً أن ننكر دور الخيانة بعد ذلك ممثلة فى «جان بردى الغزالى» والتى أدت إلى هزيمة طومان باى فى الريدانية، وظلت كل خطوات سليم فى مصر ميسرة بفضل الخيانة حتى تمكن فى النهاية من إعدام «طومان باى»، وقد تألم المصريون كثيراً من الخيانة، وهم الذين سيسمون خاير بك فيما بعد باسم «خاين بك».. ومع ذلك، فإن السعى المبكر لدى سليم إلى تجنيد عملاء له داخل الدولة المملوكية، خاصة من كبار قادتها

مثل «خاير بك»، وحرصه على أن يحصل على معلومات دقيقة حول قدرات الجيش المملوكى، يؤكد أنه كان يضمر من الأساس الغزو واجتياح الدولة، وأما الخيانة فهى مجرد عامل مساعد ولكن ليست أصل الفكرة.

أما الرؤية العثمانية فتنطلق من تصور أن العثمانيين خماة العالم الإسلامى. ففى تلك الفترة كان البرتغاليون قد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح وهددوا بالفعل طرق التجارة الدولية عبر مصر، الأمر الذى انعكس على اقتصادياتها، ثم بدأ البرتغاليون يناوشون حدود الدولة المملوكية فى مدخل البحر الأحمر، ويشنون هجمات على المدن العربية المطلة على البحر الأحمر أيضاً حيث هاجموا جدة مرتين ثم حاولوا التوغل لمهاجمة «السويس». ولكن هذه المحاولات منيت بالفشل وأخذت شكل العمليات الخاطفة. وفى عام ١٥٠٩، قامت معركة كبيرة بين الأسطولين المصرى والبرتغالى أدت إلى تحطيم الأسطول المصرى تماماً، فعاود الغورى بناء الأسطول وتأمين حدود الدولة. وقد أرسل الغورى إلى سليم الأول قبل أيام من توجه الأخير إلى غزو الدولة المملوكية يطلب إليه أن يمد بعض التجار بالأخشاب لبناء سفن جديدة فى الأسطول. ورغم أن الغورى كان مسالماً تجاه سليم، فإنه كان مهموماً فعلاً بالتصدى للبرتغاليين ولهجماتهم المتكررة.

***

الرؤية العثمانية تقول «.. كان هدف السلطان العثمانى من هذه الفتوحات الجديدة حمل أعباء حماية العالم الإسلامى..» [٢]. وتقول أيضاً «.. بعد معركة الريدانية عام ١٥١٧، صدت الدولة العثمانية جميع هجمات القوات البرتغالية وأنقذت مكة والمدينة، اللتين تعتبران قلب العالم الاسلامى، وأنقذت المدينتين من تهديدات المسيحيين.. وسيطرت الدولة العثمانية على البحر الأحمر سيطرة تامة..» [٣].

ومن الثابت أن البرتغاليين هددوا حدود دولة المماليك، ولكنهم لم يكونوا مؤهلين ولا قادرين على احتلال أجزاء منها، كانوا يشنون غارات خاطفة بشكل من أشكال القرصنة ثم يعودون. وقد حدث ذلك حتى بعد سيطرة العثمانيين على مصر ثم على مكة والمدينة واليمن. ويتحدث ابن إياس عن صدى هذه الهجمات.

وكان يمكن لسليم الأول، إذا كان مهموماً بالعالم الإسلامى - فعلاً - أن يمد يد العون إلى الغورى، خاصة وأن الأخير طلب منه إمداده بالخشب لإعادة بناء الأسطول المصرى. لقد كانت كل من مصر وتركيا دولة مسلمة، وكان الأقرب إلى المنطقة أن يعاون سليم الأول الغورى ويسانده فى مواجهة تهديد خارجى وغير إسلامى بدلاً من أن يلتهم دولته بدعوى الرغبة فى حمايتها. والثابت تاريخياً أن السلطان «سليم» لم يفعل شيئاً ضد البرتغاليين، ومن هنا «.. لا يمكن الدفاع عن السلطان سليم فى هذا الصدد بالقول إنه كان يعتزم محاربة البرتغاليين لولا أن فاجأه الموت، لأن جميع الدلائل تشير إلى أن مثل هذه المحاربة لم تكن واردة فى برنامجه الحربى..»[٤]. وعلى هذا، فإن «سليم» لم يقاوم البرتغاليين ولم يدع الغورى يقاومهم «إن سليماً لم يترك للسلطان قانصوه الغورى مواصلة الصراع البحرى ضد البرتغاليين بل اشتبك معه فى صراع حربى»[٥]. وبذلك، فإنه قد أفاد البرتغاليين (من الناحية العلمية كثيراً)، وذلك بأن أزاح خصمهم اللدود المتمثل فى دولة المماليك، ولعله «قد أسدى خدمة جليلة للبرتغاليين فى هذه المرحلة بمحاربة دولة المماليك الشراكسة لإسقاطها..»[٦]. وحين فرغ سليم من الإجهاز على دولة المماليك والسيطرة على مصر وعاد إلى إستانبول، لم تشغله قضية التهديد البرتغالى لمدخل البحر الأحمر واحتلالهم لبعض مناطق الخليج الفارسى، فبعد أن فرغ من عملياته الحربية وعاد إلى استنابول «لم يقم بعمل جدى لضرب البرتغاليين فى البحار الشرقية أو على أقل تقدير لعرقلة نشاطهم التخريبى فى المناطق التى وصلوا إليها..»[٧].

بل إن الدولة العثمانية ستصمت لمدة ثلاثين عاماً عن البرتغاليين وأفعالهم، وأول تحرك حقيقى سيجىء متأخراً جداً سنة ١٥٤٦م فى عهد السلطان سليمان القانونى ابن سليم، حيث يخرج السلطان من السويس قاصداً الهند لمواجهة البرتغاليين، ولكن حملته منيت بفشل ذريع، ذلك أن البرتغاليين كانوا قد استقروا جيداً وزادت قوتهم بعكس أيام الغورى.

* * *

وفريق آخر من المؤرخين يرى أن «سليم» كان مدفوعاً برغبة عميقة فى الانتقام من المماليك عامة لإيوائهم الأمراء العثمانيين القادمين من استنابول.

وفى الواقع، فقد كانت هناك مشكلة حقيقية تعيشها الدولة العثمانية منذ أن أصدر السلطان محمد الثانى المعروف تاريخياً بلقب الفاتح قانونه والذى ورد فيه نص خاص بوراثة العرش وأن يتاح لمن يتولى السلطنة أن يقتل باقى أخوته، أى من يمكن أن يطالب بالسلطنة. وقد أيد المفتى الأكبر هذا الرأى وأعطى له أساساً شرعياً انطلاقاً من الآية القرآنية «الفتنة أشد من القتل».. والتفسير أنه، إذا ظل هؤلاء الأمراء على قيد الحياة، فإنهم قد يطالبون بالعرش، الأمر الذى يؤدى إلى إحداث فتنة، والفتنة أشد من القتل. لذا، فإن السلطان الجديد ما إن يرقى أريكة العرش حتى يسرع بخنق أشقائه وقتلهم حتى ولو كانوا أطفالاً صغاراً لم يتجاوزوا الحلم ولا يعون شيئاً من الدنيا.. فالصغير سيكبر.. أما الأمراء الكبار، فإنهم كانوا يسارعون بالهرب إلى خارج البلاد، وكانوا يذهبون (غالباً) إلى الدولة المملوكية أو الدولة الصفوية. وقد آوى سلاطين مصر عدداً منهم فى فترات مختلفة، انطلاقاً من التقاليد الإسلامية، وربما هو الكرم المصرى المعهود أو على الأقل الرغبة فى الكيد للسلاطين العثمانيين.

وفى عصر سليم، جاء عدد من أبناء شقيقه «أحمد» إلى مصر وأقاموا فيها بعض الوقت.. وحين دخل سليم مصر، كان لايزال أحد هؤلاء موجوداً، وهو الأمير قاسم، وكان قد خرج مع الغورى إلى مرج دابق ثم عاد إلى مصر مع الأمراء المهزومين، واختفى فيها بعد أن دخلها سليم الذى جد فى الإمساك به.. ولم يتح له ذلك أبداً وهو فى القاهرة.. ولكنه بعد خروجه، اكتشف أمره، وأمسك به الجند، وتم خنقه ثم قطعت رأسه وأرسلت إلى استانبول.. وكان حين قتل فى السابعة عشرة من عمره. ولكن هل يمكن أن يكون إيواء أمير، حتى لو كان قوياً، مبرراً لتحريك جيوش الإمبراطورية وشراء العملاء ووضع الخطط على مدى شهور لغزو مصر، وخروج السلطان بنفسه على رأس جيشه ليبقى بعيداً عن عاصمة ملكه مدة تقترب من العامين؟! الأمر المؤكد أن «سليم» كان مصراً على غزو الدولة

المملوكية رغم أن الغورى من جانبه كان مستعداً حتى اللحظة الأخيرة لإزالة سوء الفهم مع سليم حتى ليلة معركة مرج دابق «لكن سليم أصر على رأيه»[٨].

كانت حدود دولة المماليك، تمتد حتى بعض ولايات الأناضول، وبذلك فإنها كانت تهدذ جدياً حدود الدولة العثمانية. وكثيراً ما حدثت المناوشات بين الطرفين على الحدود.. ولكن نتيجة تلك المناوشات لم تكن دائماً فى صالح العثمانيين، الأمر الذى أقلق السلاطين العثمانيين. ويذهب البعض إلى أن السلطان سليم أراد أن ينهى حالة القلق هذه مرة واحدة وإلى الأبد. وذلك، مع أن الوقائع كلها تؤكد أنه لم تكن لدى المماليك أية نوايا فى التوسع داخل الحدود العثمانية أو نوايا لغزوها.. بل إن المناوشات الحدودية كانت نتيجة الاحتكاكات البسيطة التى تجرى بين الجانبين ولا تلبث أن تهدأ. وفى السنوات الأخيرة من حكم الغورى، كان الغورى مشغولاً بالتصدى للبرتغاليين ويميل إلى التهدئة التامة مع العثمانيين.

وفى آخر رسالة أرسلها سليم إلى الغورى، وبعد أن كان قد أعد جيشه وخططه وتأهب للغزو، أعلن أنه سينتقم من الغورى لأنه تحالف ضده مع الشاة إسماعيل الصفوى العدو اللدود لسليم، وقد كان العداء قائماً بين العثمانيين والصفويين، فالدولة الصفوية شيعية والعثمانيون يعتبرون الشيعة «ملاحدة كفرة»، بالإضافة إلى أن تداخل الحدود بين الدولتين كان أمراً مؤرقاً لكل منهما.. وقد توسع الصفويون ووصلوا إلى الحدود العثمانية وباتوا يهددونها، وينشرون المذهب الشيعى بين الرعايا العثمانيين السنيين.

فى تلك الفترة، جرت بعض مراسلات بين إسماعيل الصفوى وقانصوه الغورى، وقد رأى كل منهما فى سليم تهديداً مباشراً له ولدولته، ولكن الأمر بينهما لم يصل إلى حد التحالف والتنسيق فى العمل ضد سليم، وربما لو حدث ذلك لتغير شكل التاريخ فى المنطقة.. ولكن لم يثبت أن تحالفاً صفوياً قد تم، بل إن الغورى عرض، فى رسالة بعث بها إلى سليم أن يقوم بتهدئة الجو بين الخصمين اللدودين. ويبدو أن الصلة بين صراع الصفويين والعثمانيين وابتلاع دولة المماليك أمر اختلف بشأنه المؤرخون والباحثون، فهناك من يقول بوضوح تام:

إن «الصراع - العثمانى - مع الصفويين المسئول عن سقوط دولة المماليك» [٩]، وهناك من يرى أن العثمانيين اعتبروا أن طريق تبريز «يمر بالقاهرة» [١٠].

أما «أرنولد توينبى»، فإنه يرى أن «سليم» أراد أن يبتلع دولة المماليك لا لشيء إلا ليحدث توازناً بين قوة السنيين وقوة الشيعة، والحق أن هذا الرأى فيه قدر كبير من المبالغة، إذ لم يكن هناك خلل فى القوة بين الدولة الشيعية والدولتين السنيتين (المملوكية والعثمانية) قبل أن يلتهم سليم دولة المماليك. ولم تكن فكرة الصراع المذهبى مسيطرة إلى هذا الحد بين الصفويين والمماليك. أما بين الصفويين والعثمانيين، فإن الصراع بينهما كان سياسياً بدرجة أساسية.

ويرى المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان أن إقدام سليم الأول على اجتياح مصر كان تعبيراً عن أمل ورغبة عثمانية قديمة، فمصر كانت مطمعاً للدولة العثمانية منذ أن نشأت هذه الدولة وبدأت فى التوسع، ولكن ما كان يعوقها عن تحقيق ذلك الحلم هو ظهور الخطر المغولى على عهد «تيمور لنك» الذى هدد العثمانيين والمماليك جميعاً.

لقد كانت مصر، بموقعها وبدورها ورسالتها فى العالم الإسلامى، موضع إغراء دائم للسلاطين العثمانيين، وكان يحول بينهم وبينها انشغالهم تارة بالصراعات الداخلية وبالتهديدات الخارجية تارة أخرى، وكذلك عجزهم عن مناطحة قوة المماليك. ولكن، حين تجمدت تلك الدولة وضعفت قوتها وعجزت عن أن تجدد نفسها، استطاع سليم اختراقها وتحقق له ما راود آباءه وأجداده من قبل.

هوامش الفصل الثانى

(١) راجع د. حسين فوزى «سندباد مصرى» دار المعارف بمصر.
(٢) راجع الأتراك والإسلام، د. علي سفيم ود. يشار يوجل، ص ٩.
(٣) المرجع السابق ص ١٠، راجع أيضاً د. محمد حرب «العثمانيون فى التاريخ والحضارة».
(٤) راجع د. عبد العزيز الشناوى «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» ج ٣، ص ١٤٥٠ - مكتبة الأنجلو المصرية،- ١٩٨٣. وأهمية هذا الكلام أنه جاء فى مرجع ضخم وضع أساساً بهدف تجميل تاريخ الدولة العثمانية.
(٥) المرجع السابق - نفس الصفحة.
(٦) د. الشناوى - المرجع السابق ص ١٤٥٠.
(٧) المرجع السابق ص ١٤٥١.
(٨) د. الشناوى - مرجع سابق ص ١٤٥١.
(٩) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى؛ «أصول التاريخ العثمانى» - دار الشروق الطبعة الثانية،١٩٩٣.
(١٠) روبير بانتران مشرفاً - ترجمة بشير السباعى «تاريخ الدولة العثمانية» ج ١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩٣.

الفصل الثالث

ولعب السيف بالرءوس

«إذا دخلت إلى مصر، أحرق بيوتها قاطبة والعب فى أهلها بالسيف..»

سليم الأول

«انطلق فى أهل مصر جمرة نار»

ابن إياس

ما كادت معركة الريدانية [1] تنتهى حتى ترامت إلى مسامع أهل القاهرة أنباء هزيمة جيش المماليك وانسحاب سلطان مصر «طومان باى» هارباً؛ وانتاب القلق والاضطراب سكان القاهرة؛ وما هى إلا لحظات حتى اندفع بعض الجنود العثمانيين إلى داخل القاهرة يطاردون عدداً من المماليك ويفتشون بيوت أمرائهم ويبحثون عمن بداخلها؛ وينهبون أيضاً ما تضمه تلك البيوت من الأموال والأثاث والقماش.

لم يكن ذلك أهم ما فعله الجنود العثمانيون؛ فقد اندفع بعضهم إلى «المقشرة» فأحرقوا بابها وأطلقوا من بها من المساجين؛ وكان من بينهم بعض العثمانيين؛ كان طومان باى قد سجنهم قبل المعركة. وانطلق الجنود إلى باقى سجون القاهرة يفعلون بها الشىء نفسه «..وأطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة أجمعين..» وفى ساعات، كان هؤلاء المساجين يجوبون الشوارع طلقاء أحراراً؛ وساد المدينة مزيد من القلق والاضطراب.

كانت القاهرة تمر بلحظة تاريخية فاصلة؛ لم تكن لحظة هزيمة فقط وإنما انهيار وسقوط الدولة المملوكية تماماً؛ ولم تعد هناك سلطة ولا أى نوع من الضبط؛ فانطلق اللصوص والخارجون على القانون—السجناء—فى الشوارع، وكانت فرصة أمام أنصار السلب والنهب للقيام بما يهوون..«صارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية..» [2]. ونستطيع أن نتفهم قيام«الزعر» بالسلب والسطو، فهم الفئة الأكثر قهراً والأشد فقراً فى المجتمع؛ وفى النهاية ليس لديهم ما يحرصون أو يتطلعون إليه، وليس هناك أيضاً ما يخافونه؛ وربما جاء إطلاق العثمانية للمساجين إشارة ذات مغزى واضح ومحدد تدعوهم لأن ينهبوا ويحدثوا ما استطاعوا من الفوضى؛ فلا عقوبة ولا مؤاخذة لهم على ذلك من أى طرف أو جهة.

ويمكن أيضًا أن نتصور قدراً من العنف حدث مع عملية النهب هذه؛

فبحكم الطبيعة الإنسانية لن يترك أهل القاهرة بيوتهم تنهب هكذا دون التصدى والمقاومة لما يحدث؛ ومع هذه الحالة فمن الممكن أن تكون قد حدثت مواجهات وسقط الضحايا؛ ولكن.. ربما فى غمرة الهم الأكبر.. لم يتوقف ابن إياس وغيره من المؤرخين أمام هذه التفصيلات.

ولعل أبلغ وصف لتلك الحالة ما عبر عنه ابن إياس قائلاً «..انطلق فى أهل مصر جمرة نار..». ومع ذلك، فإن تلك الجمرة لم تكن سوى مستصغر الشرر للجحيم الحقيقى الذى ستشهده القاهرة فى الأيام التالية.

كانت معركة الريدانية يوم الخميس ٢٢ يناير عام ١٥١٧م. وفى اليوم التالى مباشرة «الجمعة»، بدأ توافد الجنود العثمانيين على القاهرة؛ وفى نفس اليوم «الجمعة»، ختم خطباء المساجد خطبة الجمعة بالدعاء للسلطان سليم «انصر الله السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه.. اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً مبيناً يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين..» وأمّن المصلون وراء الخطباء.. وكان معنى هذا أنهم قد أعلنوا تأييدهم وترحيبهم بالسلطان الجديد، وأنهم إذا كانوا قد تركوا أمر الجندية وحمل السلاح للمماليك؛ فإنهم تركوا معه أمر اختيار السلطان؛ فمادام مسلماً موحداً فلا يهم بعد ذلك من يكون هو؛ أو ماذا تكون جنسيته؛ مملوك مشترى من خلف الحدود أو كردى وصل إلى الحكم.. عربى أو عثمانى.

وكان المتوقع، فى مقابل ذلك، أن لا يقوم الجند فى القاهرة بما قام به أسلافهم حين دخلوا «القسطنطينية» مثلاً؛ من نهب وقتل... إلخ، ولكن هذا ما حدث، فإن النهب الفردى الذى استثار الذعر تحول مع الجند المنتصرين إلى نهب عام ومنظم.

وقد اتجهوا أولاً إلى المطاحن «.. أخذوا ما فيها من البغال والأكاديش[٣] وأخذوا عدة جمال من جمال السقايين..» الأمر الذى أدى إلى أن تتوقف تلك المطاحن عن العمل؛ وأن يفقد السقاءون جمالهم التى تحمل قرب الماء.. ثم ذهبوا إلى خطوة أبعد حيث مخازن الغلال «..ثم توجهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال..».

وكان معنى هذا كله أن يجوع المصريون وأن يعطشوا.. ولكن كل ذلك لم يكن يعنى هؤلاء الجنود فى شىء؛ وما أحزن الأهالى حقاً هو أن الجنود قد نهبوا الغلال؛ وهى طعامهم وقوتهم؛ لكى يطعموا بها الخيل والجمال..!! وكانت النتيجة النهائية حدوث ندرة فى رغيف العيش، وبالتالى ارتفاع الأسعار وهذا ما وقع بالضبط بعد عدة أيام «تشحطت الغلال من القاهرة وارتفع الخبز من الأسواق..» وأصابت تلك الأزمة الجميع فقراء وأغنياء «اضطربت أحوال الناس قاطبة».

ولم يتوقف النهب والسطو على القاهرة فقط؛ بل امتد إلى كل منطقة مروا بها؛ كما حدث فى منطقة «الخانكة»؛ والتى كان يقطنها فلاحون ومزارعون بسطاء؛ وكان الجنود ينهبون مزروعاتهم وحقولهم كل يوم وبشكل منتظم..

«..كانوا يخرجون وقت صلاة الصبح ويتوجهون إلى الضياع التى حول الخانكة فيحشّون ما فيها من الزروع من البرسيم والفول فيطعمونه إلى خيولهم فى كل يوم..»

وإذا كانوا قد اقتلعوا المزروعات لإطعام خيولهم؛ فماذا عن طعامهم هم..؟! لن يعدم الجنود وسيلة؛ فهناك الحيوانات الصغيرة والطيور التى يربيها الفلاحون فى بيوتهم «..صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم حتى أبوابهم وخشب السقوف الذى هناك..»؛ مفهوم أنهم يسرقون الدجاج والأوز لتصبح طعامًا لهم؛ أما الأبواب والسقوف فلأسباب أخرى؛ وبالتأكيد ليس من بينها، مثلا، أنهم كانوا يفكرون فى بناء بيوت لهم أو شىء من هذا ولأن الوقت كان شهر «يناير»، وهو ذروة الشتاء فى مصر، فإننا نتوقع أنهم اقتلعوا الأبواب والسقوف لإشعالها للتدفئة! وامتد النهب إلى كل ما وجدوه أمامهم «..ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك..».

إلى هنا، امتد النهب إلى الممتلكات والأشياء المادية فقط؛ ولكن أهل السوء لم يتوقفوا عند هذا الحد؛ بل امتدت يدهم إلى تخريب القيم وامتهان الشخصية ذاتها «..صاروا يخطفون العمايم ويعرون الناس فى الأماكن المفردة من بعد العشاء..» ..والعمامة هى رمز الوقار والمهابة فى ذلك الوقت؛ فإذا بهم

يخطفونها ويكشفون رءوس الناس[٤] أما ذروة الاستخفاف والامتهان الحقيقى فهو التعرية الحقيقية للإنسان.. ولا نعرف على وجه التحديد؛ هل كان ذلك يتم برفع الملابس عن السوءة؛ أو عن طريق تعريتهم تماماً وخطف الملابس؟.. ولكن ما يذكره ابن إياس عقب ذلك يكشف لنا بعض الحقيقة؛ فقد كانوا يخطفون العبيد والصبيان المرد ليلوطوا بهم.. وهى الجريمة الأخلاقيةالتى تعافها النفس السوية؛ «يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود..»[٥].

وامتدت الاعتداءات إلى الأرواح وقتل الأبرياء. وقد وصف لنا المؤرخ التركى جلال زادة قوجة تشانجى مصطفى، والذى عاصر تلك الفترة، ما حدث وقدم التبرير «..دخل الجيش العثمانى مصر وكان يوم الحساب والزلزال والانتقام للمعركة السابقة–الريدانية–وما حاق بالعثمانيين فيها من خسائر فادحة..» [٦].

وهكذا، فإن اعلان المصريين تأييدهم لسليم لم يمنع عنهم الانتقام من الجند..!!

ما حدث من الجند يمكن أن يجد بعض التبرير أو الاعتذار؛ فهى أفعال وممارسات جنود قادمين من وهج الصحراء ونيران القتال؛ ولم تسيطر عليهم قيادتهم بعد.. خاصة إذا علمنا أن بعض الجنود دخلوا إلى العاصمة عقب معركة الريدانية مباشرة.. فى نفس اليوم.. وأنهم هاجموا بيوت بعض الأمراء. لكن فى اليوم الذى دخل معظم الجنود العاصمة–الجمعة ٢٣ يناير–دخل الخليفة أيضا، ومعه عدد من وزراء ابن عثمان وأمرائه؛ مثل خاير بك؛ بالإضافة إلى قاضى القضاة؛ وكانوا قد خرجوا من الغورى إلى مرج دابق..؛ وكان أول ما فعله الخليفة حين دخل من باب النصر أن وجه نداء للأهالى «تنادى للناس بالأمان والاطمئنان والبيع والشرى والأخذ والعطاء». وطلب الخليفة أيضاً إلى الأهالى أن يعلنوا تأييدهم للسلطان سليم وأن يبايعوه.. وهل كانوا قد عارضوه؟!!. واستجاب الناس بسرعة وأعلنوا موافقتهم وترحيبهم بالسلطان سليم «ضج له الناس بالدعاء من العوام». ولسنا بحاجة لأن نعيد التذكير بأن الخليفة هو أعلى سلطة روحية فى البلاد؛ وكلمته نافذة؛ ولذا استجاب له المسلمون؛ وربما تفاءلوا خيرا بدخوله؛ وتوقعوا أن يرعوى الجنود العثمانيون ويتوقفوا عن فسادهم وطغيانهم. وفيما يبدو فإن نداء الخليفة للأهالى

بالأمان والاطمئنان لم يأت من فراغ؛ فمفاسد الجند صارت معروفة للجميع.. وتحديداً للخليفة وللسلطان سليم.. وهذا يكفى؛ ولذا.. فى اليوم التالى لدخول الخليفة القاهرة وإعلان أهلها تأييدهم لسليم.. أرسل سليم مجموعة من الإنكشارية (أهم فرقة فى الجيش)ليقفوا على أبواب القاهرة؛ وكان لهم هدف واضح ومحدد هو أن يمنعوا «النّهابة من نهب البيوت..» وربما نجح أفراد «الإنكشارية» فى منع «الزعر والغلمان» من النهب؛ وردعهم؛ ولكن هل فعلوا الشىء نفسه لزملائهم من الجنود؛ خاصة وأن معظم النهب جاء منهم؛ فإن نهب الزعر والغلمان كان يوم الخميس فقط وتوقف بدخول العثمانيين الرسمى يوم الجمعة..

على العموم، لم يمنع مناداة الخليفة للأهالى بالأمان؛ ووقوف جنود الإنكشارية على أبواب القاهرة؛ الجند العثمانيين داخل العاصمة من النهب والفساد «..لم تسمع العثمانية من هذه المناداة وصاروا ينهبون بيوت الناس حتى بيوت الأرباع فى حجة أنهم يفتشون على المماليك والجراكسة..»

إذاً، لم يستجب العثمانية؛ لشىء؛ بل إنهم طوروا عمليات النهب التى قاموا بها؛ فإن كانوا بدأوا ببيوت الأمراء وأولاد الناس «فإنهم اتجهوا أيضًا إلى بيوت الأرباع» تلك التى يقطنها عامة الناس ومتوسطو الحال منهم.. وكان لديهم التبرير جاهزاً وهو أنهم يبحثون عن الجراكسة والمماليك الهاربين.. وهو تبرير يتجاوز نداء الخليفة؛ ولا يدخل فى نطاق مهمة الإنكشارية بمنع النهب.

وامتد ذلك التبرير ليصبح أداة لشىء آخر أبشع من اقتحام بيوت الأهالى؛ فقد بدأ الجنود العثمانيون عملية مساومة للناس على أرواحهم وحياتهم وكان الأمر يتم على النحو التالى كما يصفه ابن إياس «..صارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ويقولون لهم : أنتم جراكسة؛ فيشهدون عندهم الناس أنهم ما هم مماليك جراكسة..» والمفروض أن ينتهى الأمر عند هذا الحد؛ ويطلقونهم فى الحال؛ ولكن شهادة الشهود لم تكن لتقنع العثمانية؛ بل يقنعهم شىء آخر هو «المال».

«..فيقولون لهم اشتروا أنفسكم منا من القتل؛ فيأخذون منهم بحسبما يختارونه من المبلغ..» وهكذا كان على أبناء البلد أن ينقذوا أنفسهم من القتل

بدفـع الأمـوال؛ وبالقـدر الذى يحدده العثمـانيـون؛ وباختصار تحولت حياة الناس إلى سلعـة تباع وتشترى.

وإذا كان أبناء القاهرة قد ترك لهم الخيار لأن يدفعوا ويشتروا أنفسهم؛ فإن إخوانهم أبناء «الشرقية» لم يتح لهم هذا الخيار؛ بل بيع أبناؤهم وبناتهم فى أسواق الرقيق والجوارى؛ فقد حدث أن «عربان» الشرقية أخذوا يهاجمون العثمانيين؛ «صاروا يقطعون الطريق على العثمـانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمـالهم وسلاحهم..» وامتـد فعل العربان إلى أهالى تلك المناطق نفسهـا؛ فاعتدوا على ممتلكات الأهالى من المزارع والحيوانات. ولذا، قرر سليم أن يرسل تجريدة لتأديب هؤلاء العربان؛ وجعل على رأسهاالأمير «جان بردى الغزالى». وتحرك «الغزالى» بتجريدته من القاهرة وكان قواتها ١٥٠٠ جندى؛ ووصل الشرقية.. ولا نعرف على وجه التحديد مـاذا فعلوا مع العربان وإن كنا نشك فى أن يكون قد استطاع أن يلاحقهم لأنهم لا يتمركزون فى مكان محدد يمكن مهاجمته؛ ولكن ما فعلته التجريدة هو أن استباحت تلك المنطقة؛ استباحت الممتلكات والديار «..كبس على عدة بلاد من الشرقية حتى وصل إلى التل والزمرونين وإلى زنكلون؛ فنهب ما فيها من الأبقـار والأغنام والأوز والدجـاج..».. وكل هذا كـان متـوقـعًا من تجـريدة عـسكرية؛ فلم يكن النهب والسطو غريبًا على العسكر، ولكن كـانت المفـاجئـة المروعة هو ما فعله مع الأهالى «..وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات وصار يبيعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان..» وكان الحادث مروعًا وجارحًا للضمير المصرى والإنسـانى؛ فقـد كـان فى القـاهرة أسواق للجوارى وللرقيق؛ الذين كـان يستجلبهم التجار من الخارج؛لكن لم يعهد أبداً أن يباع طفل مصرى أو طفلة فى الأسواق بعـد أن يؤخـذ من أهله.. ولكن هذا مـا حدث، ولذا فـإن البعض تطوع لشراء هؤلاء الأطفال وردهم ثانيةإلى أسرهم «فاشترى بعض الناس منهم بنتا بأربعة أشرفية وأعتقها وأوهبها إلى أمها وقد رق لها من الأسف على ابنتها..»

وإذا كان بعض الناس أعادوا فتـاة إلى أمهـا؛ فإن آخرين لم يفـعلوا ذلك.. بدليل أن «يونس باشا» وزير سليم طلـب إلى من اشـترى الصـبيـة والبنات وباقى

المنهوبات أن يردها على أصحابها «ثم إن يونس باشا نادى فى القاهرة بأن كل من اشترى من نهب بلاد الشرقية شيئاً من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه؛ وكذلك أولاد الفلاحين..» وكان هذا النداء اعترافًا من الوزير بأن قائد التجريدة قد أخطأ وأجرم؛ ولكن هذا الجرم الفاحش؛ كان عقوبته عند الوزير مجرد اللوم «ولام جان بردى الغزالى فيما فعله فى الشرقية..»

أما السلطـان سليم الذى أرسل التجريدة وعين قائدها؛ فإن الأمر لم يكن يعنيـه فى شيء. فلا لام ولا عـاتب؛ وهو الـذى كـان يطيح برأس المخطئ على أقـل هنـة أو هفوة.

لم يكن طومان باى قد استسلم بعد هزيمته فى «الريدانية» ؛ ولكنه اختفى عدة أيام؛ وأعاد تجميع قواته. وفى مساء الثلاثاء-٢٧ يناير، هاجم طومان قوات العثمانيين؛ بدأ من معسكر سليم فى بولاق ودخل القاهرة؛ وحقق قدراً كبيراً من النجاح؛ إلى الحد الذى جعل الخطباء يدعون له ثانية على المنابر عقب صلاة الجمعة التالية مباشرة؛ وكانوا قد دعوا لسليم فى الجمعة السابقة؛ وفى هذه المعركة لم يقف المصريون مكتوفى الأيدى؛ كانوا قد خبروا العثمانيين فى الأيام القليلة الماضية؛ واكتشفوهم على حقيقتهم؛ قوم أكثر ظلماً وعسفاً من المماليك؛ وثبت لهم أن كل ما أشيع بينهم من قبل عن ميل العثمانيين للعدل والإنصاف كان نوعاً من المبالغة والدعاية؛ ولعلها جزء من الحرب النفسية التى تمهد لأى احتلال. المهم، اشترك المصريون فى قتال العثمانيين؛ خاصة فى مناطق الناصرية وقناطر السبـاع[٧] وكانوا يتلقون التعليمات مباشرة من السلطان طومان باى.. «..ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعيّاق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان..».

ورغم النجاح الذى حققه طومان باى واقترابه من النصر؛ فإن أمراء المماليـك خذلوه؛ هذه المرة أيضاً؛ وصحيح أنه لم تحدث منهم خيانة كخيانة جـان بردى الغزالى فى الريدانية؛ ولكنهم تكاسلوا عن القتال؛ وملأهم الرعب من العثمانيـين. ومع صباح السبت التالى مباشرة (٣١ يناير)، اكتشـف طومان

أنه صار وحده في الميدان ومعه عدد قليل من المماليك.. فانسحب خارج القاهرة. وظل المصريون وجهاً لوجه أمام العثمانيين يواجهون الموقف وحدهم؛ يتعرضون لأبشع أنواع العقاب؛ وينالون أعنف الإيذاء لأربعة أيام متتالية.. ومن لحظة انسحاب طومان باى بدأ العقاب «..ثم إن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان من الزعر، وغير ذلك؛ ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح وربما عوقبت من لاجنى..».

والواضح أن السيف العثمانى لعب فى رقاب المصريين بشكل عشوائى بهدف العقاب والرغبة فى الانتقام؛ وانتشر القتل فى معظم مناطق القاهرة وامتلأت الشوارع والطرقات بالجثث والرقاب «..فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة؛ ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى الصليبية؛ فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأربعة أيام..».

وهناك مؤرخ عثمانى عايش تلك الفترة يتفق مع ابن إياس فى وصف ما حدث؛ ولكنه يعطى تقديراً مختلفاً لأعداد القتلى؛ يقول منجم أحمد باش زادة «قتل فى هذه المعركة من الجراكسة وأهل مصر عالم عظيم[٨]..» ويضيف قائلاً «..وامتلأت أسواق مصر وزقاقها بالجثث والجيف؛ بحيث كان لا يمكن العبور منها؛ ويحكى أن عدد القتلى فى المعركة الثانية كان قد بلغ إلى ستين ألفا؛ وأمر السلطان بإحراق البيوت التى تحصن فيها الجراكسة، فاحترق جمع كبير بهذا الطريق..»[٩] والعبارة الأخيرة تؤكد أن كل شيء تم بعلم سليم وبأوامره الشخصية.

وانطلق العثمانيون يحرقون البيوت بخيولهم؛ ينهبونها ويعبثون بما فيها؛ الأمر الذى دفع الأهالى إلى أن يغلقوا الأبواب بالطين ويصنعون بدلاً منها «خوخة» صغيرة.. «..ولما كثر الاضطراب بالقاهرة ضيقت الناس أبوابها الكبار وجعلوها خوخاً صغاراً لا يدخل فيها فرس ولا راكب..».

وإلى اليوم، نرى فى الريف والمدينة أن البيوت القديمة؛ والتى بنيت حتى النصف الأول من هذا القرن؛ لها بوابة كبيرة؛ وفى إطار هذه البوابة؛ باب صغير يسمى «خوخة» يسمح للفرد العادى فقط أن يعبر منه؛ وربما يعود ذلك النمط

من البوابات إلى تلك الأيام التى عاشها المصريون فى خوف من أن يقتحم العثمانيون بيوتهم بخيولهم.

كان سليم سعيداً بما تحقق؛ وبما يقوم به جنوده فى القاهرة؛ فقد أرسل خطاباً إلى «كافل» أمير دمشق؛ يسرد له ماحدث؛ ويحكى بفخر ما تم.. يقول «..وفى هذه الثلاثة أيام، يستمر القتال من الصبح إلى العشاء؛ وبعون الله تعالى قتلنا جميع الجراكسة؛ ومن انضم إليهم من العربان؛ وجعلنا دماءهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة؛ ونهب عساكرنا قماشهم وأثاثهم وديارهم وأموالهم ويرقهم ثم صارت أبدانهم للهوام..»[١٠]. وربما كان قاسياً على المصريين أن تظل مدينتهم مباحة أمام الجند لمدة أربعة أيام وبأوامر السلطان.. لقد كانوا يعرفون طغيان العسكر؛ ولكنهم كانوا يعرفون أيضاً أن هناك «كبيراً» يشكون إليه؛ ويلجأون إليه؛ ربما كان الخليفة؛ أو كان القضاة وأخيراً السلطان؛ فما بالنا إذا كان السلطان نفسه هو الذى أمر باستباحة أموالهم وبيوتهم وأرواحهم؛ بل يسعد ويفخر بذلك؛ هنا انتبه الأهالى إلى أن سلطانهم الجديد يكن لهم العداء والكراهية الشديدة؛ لذا تردد بينهم أنه وهو فى الشام وفى إحدى الجلسات بين اخصائه ويحيط به الغلمان والصبيان المرد؛ صاح «..إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب فى أهلها بالسيف..»؛ وتقول نفس الرواية.. إن الخليفة كان حاضراً ومستمعاً لذلك التهديد؛ فتلطف به واسترضاه حتى تراجع؛ ولكن جاءت تلك الأحداث لينفذ ما هدد به.. الأمر الذى يجعل مؤرخاً مثل ابن إياس، يحمد الله تعالى، فى نهاية تلك الأيام، على أن السيف لم يلعب فى رقاب المصريين جميعاً؛ وتوقف عند عشرة آلاف أو ستين ألفاً كما تذكر الرواية العثمانية.

وعلى العموم، فإن الميول العدوانية من قبل سليم تجاه المصريين كانت واضحة قبل أن يصل مصر؛ فقد اصطحب الغورى أثناء خروجه من مصر عدداً كبيراً من العلماء ورجال الطرق الصوفية «خلفاء المشايخ، مثل خليفة سيدى أحمد البدوى، وسيدى عبد القادر الجيلانى، وسيدى إبراهيم الدسوقى، وأمثالهم»[١١].

وكانت العادة أن يخرج هؤلاء المشايخ مع السلاطين فى المعارك الكبرى؛

وكان السلطان هو الذى يستدعيهم كنوع من المشاركة المعنوية للجنود؛ وكنوع من إضفاء الصبغة الدينية على المعركة وإظهار أن رجال الدين يساندون مواقف السلاطين!! ولكن هؤلاء المشايخ كانوا من المصريين.. لم يكونوا كالجند أتراكًا أو جراكسة. ولما هزم الغورى دخلوا إلى حلب وأقاموا فيها بعض الوقت قبل أن يعودوا إلى مصر.. ولما وصل سليم الأول إلى حلب، استعدوا للخروج منها خشية لقائه.. فلما رأى موكبهم وأعلامهم، وكانوا يقدرون بحوالى الألف (طبقا لرواية ابن زنبل)، سأل عنهم وعرف أمرهم فاستدعاهم إليه «..فلما مثلوا بين يديه أمر برمى رقابهم واحداً بعد واحد؛ ولم يرحم منهم كبيراً لكبره ولا صغيراً لصغره فقتلهم عن آخرهم..»[(١٢)].

عاود طومان باى الهجوم، فلم يوفق.. ثم كرر المحاولة ولاقى نفس المصير.. وعندما شعر بالهزيمة النهائية، ذهب عند هرم خوفو.. وتحت سفحه، وقف ينشد قصيدة مطولة بالعامية المصرية تصور معاركه وما حدث له.. ثم انطلق إلى أحد مشايخ العربان فى البحيرة (الشيخ حسن بن مرعى) يختبىء عنده؛ وكان صاحب فضل على ذلك الشيخ.. فقد كان سجينا فى عهد الغورى وقرر الغورى أن لا يفرج عنه نهائياً.. فلما تولى طومان باى السلطنة، أفرج عنه ورد إليه اعتباره. وتصور طومان باى أن الشيخ سيحفظ له الجميل.. وبالفعل، أقسم له على المصحف أنه لن يغدر به ولن يخونه. ولكن الشيخ حسن سارع إلى سليم بما لديه. وأخيراً، قبض على طومان باى والتقى وجهاً لوجه مع سليم الأول؛ ودار بينهما عتاب..عاتبه سليم بأنه طلب مقدماً منه أن يخطب باسمه على المنابر ويتبعه على أن يتركه—نيابة عنه—فى حكم مصر.. فرد طومان قائلاً «..أنا والله ما أخذت السلطنة برغبتى وإنما قومى وعسكرى اختارونى ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم لما علموا من زهدى فى ذلك المآل. فلما تقلدت ذلك وجب على أن أرد عنهم وأدافع عن أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحريمهم..».

ثم سأله طومان باى «..كيف تستحل قتل المسلمين وترمى عليهم بالمدافع والنيران، كيف بك إذا وقفت بين يدى رب العالمين؟» فرد عليه سليم قائلاً «..أنا

ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار..».

وعاد سليم ليقول له مؤكداً «..لو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى، ما جئت لك ولا دست أرضك...».

فرد طومان باى «الأنفى التى تربت فى العز لا تقبل الذل، وهل سمعت أبدا لأسد يخضع للذئب؟».

وأخذ طومان باى إلى محبسه.. قال سليم لحاشيته «والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن أخروه فى الترسيم حتى ننظر فى أمره..»[١٣].

تردد أن سليم أراد أن يعفو عن سلطان مصر «طومان باى» وأن يأخذه معه إلى استانبول أو ينفيه إلى مكة؛ وأقام الصدر الأعظم عدة ولائم فاخرة لطومان باى حضرها كل وزراء سليم الأول.[١٤] ولكن وشايات خاير بك وجان بردى الغزالى؛ أدت فى النهاية إلى إعدام طومان باى شنقاً على باب زويلة.

كان طومان قد أودع السجن.. فلما خرجوا به مقيداً على البغلة، مر بالشوارع ملقيًا السلام والتحية على الجميع. واحتشد الأهالى ليروا بطلهم الأسير فى طريقه إلى لحظة النهاية.. واستقبل هو مصيره بشجاعة حقيقية تليق بأبطال الأساطير، فقد وقف تحت المشنقة رابط الجأش، ثابت النفس.. والتفت إلى الناس من حوله طالباً منهم «..اقروا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات..».. وكان هو البادئ بالقراءة «فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه..».

وأخيراً، توجه إلى المشاعلى –عشماوى– قائلاً له «اعمل شغلك» وتردد بين المصريين فيما بعد أن الحبل قد قطع به مرتين.. فلما تمت عملية الشنق[١٥] «صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن».

ويقرر ابن زنبل أن ذلك اليوم كان «أشأم الأيام. وبكت عليه الأرامل والأيتام».

كان مبعث الحزن على طومان أنه كان عادلاً ولم يعرف عنه الظلم، بعكس باقى السلاطين الذين حكموا مصر؛ وأنه لم يستمتع بالسلطنة بل قضاها فى جهاد ونضال؛ وأنه لم يسع إلى السلطنة بل إن الأهالى ممثلين فى العلماء

ورجال التصوف هم الذين طلبوا إليه وألحوا عليه بقبول المسئولية بعد أن تردد وامتنع حين طلب منه المماليك ذلك.. فقد كان يمثل كل المعانى والقيم التى يتطلع إليها المصريون فى السلطان.. العدل.. الزهد فى السلطة.. أن يكون لهم رأى فى اختياره؛ أن يصون ويدافع عن الوطن.. ولذا فإن قتله بهذه الطريقة كان صدمة عنيفة لهم.. «لم نسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان.. أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ولا علقت رأس سلطان على باب زويلة قط.»[١٦].

وعقب شنق طومان، بدأت الاستعدادات كى يصعد سليم إلى القلعة؛ ويجلس «رسميًّا» على مقعد حكم مصر؛ فأمر بتنظيف الشوارع والطرقات من الجثث التى تعفنت حتى لا يفسد الهواء؛ فجمعت الجثث وألقيت فى النيل؛ وكان المفروض أن تغسل وتكفن وتدفن فى المقابر طبقاً للتقاليد الإسلامية والمصرية المعمول بها وباعتبار سليم مسلماً أيضاً.

تمت عملية تنظيف الشوارع؛ وكان صعود سليم إلى القلعة يعنى معاناة أخرى لسكان القاهرة؛ خاصة فى المناطق القريبة من القلعة؛ فقد كان عليهم أن يهجروا بيوتهم ويخلوها نهائياً « ..نادى السلطان سليم شاه فى الصليبة وقناطر السبّاع بأن أصحاب الأملاك التى فى الصليبة وجامع ابن طولون يخلون من بيوتهم، فإن السلطان سليم شاه طالع إلى القلعة ليقيم بها؛ وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك المعنى؛فخرجت الناس من بيوتهم على وجههم، وانطلق فيهم جمرة نار..».

وعادت الحكاية ثانية؛ يخرج الأهالى من بيوتهم ويقتحمها الجند بخيولهم وينهبون كل ما فيها.. ويسد الأهالى أبوابهم بالطين ويضيقونها ولكن لا شئ يجدى فقد هدم الجند ما بناه الأهالى وسيطروا على المدينة «صاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم، من الصليبة إلى جامع قوصون إلى قناطر السباع إلى داخل باب زويلة؛ وما خلا منهم موضع فى المدينة..».

وأخيراً؛ فى يوم ٢٠ محرم سنة ٩٢٣ هجرية؛ ١٥ فبراير ١٥١٧ ميلادية؛ دخل سليم بموكبه من «باب النصر»؛ متوجها إلى القلعة؛ واستقبله الأهالى بالتأييد،

ولم يكن أمامهم غير ذلك «..ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة..».

وفيما يبدو، فقد انتشى من هذا الاستقبال الذى لم يتوقعه وربما لم يخطر بباله من قبل.. أن يأتى من استانبول ليستقبل فى مصر ويجلس على كرسى الحكم فيها؛ وهو الأمل الذى طالما راود آباءه وأجداده وفى غمرة نشوته بهذه اللحظة وذلك الاستقبال، طمأن الأهالى على حياتهم وأمنهم على أموالهم وممتلكاتهم وطلب إليهم أن يعودوا إلى ممارسة حياتهم العادية؛ وهو بالضبط ما طلبه منهم الخليفة أثناء موكبه المشابه لموكب سليم الآن حين دخل القاهرة عائداً من حلب.. وما حدث عقب النداء الأول من الخليفة، تكرر أيضًا هذه المرة عقب نداء السلطان، فقد واصل الجنود فسادهم.. الاعتداء على البيوت ونهب ممتلكات الأهالى؛ ولم يأبهوا بمناداة السلطان «فكان ينادى كل يوم فى القاهرة بالأمان والاطمئنان، والنهب والقتال عمال من جماعته ولا يسمعون له، وحصل منه للناس الضرر الشامل..».

هوامش الفصل الثالث

(١) «الريدانية» منطقة كانت خارج القاهرة؛ وموقعها الآن «العباسية»؛ وتنسب إلى ريدان الصقلى أحد خدام الخليفة الفاطمى العزيز بالله. راجع الخطط التوفيقية لعلى مبارك-هيئة الكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
(٢) النص مأخوذ عن ابن إياس «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤-الجزء الخامس. وكل النصوص فى هذا الفصل وما يليه من فصول ولا تتم الإشارة إلى مصدرها فى الهامش مأخوذة عن ابن إياس.
(٣) الأكديش كلمة فارسية بمعنى «الهجين» ومعناها فى التركية «الفرس الهجين».. راجع د. أحمد السعيد سليمان «تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل» - دار المعارف بمصر، ١٩٧٩.
(٤) لا يزال كشف الرأس وتعريتها دليل مهانة وضعف عند شيوخ الريف المصرى.
(٥) الأمرد هو من لا تنبت له لحية ولا شعر فى وجهه.
(٦) أحمد فؤاد متولى، مرجع سابق، ص ١٨٧.
(٧) تقع الناصرية بين السيدة زينب والقلعة.
(٨)، (٩)، (١٠) د. أحمد فؤاد متولى، مرجع سابق، ص١٨٨. ص١٨٩، ص١٩٣.
(١١) ابن زنبل؛ طبعة عبد المنعم عامر؛ ص ٤١.
(١٢) ابن زنبل، مرجع سابق، ص ٤٢.
(١٣) الحوار بكامله فى كتاب ابن زنبل الرمال، ص ١٣٣- ١٣٦.
(١٤) راجع د. أحمد فؤاد متولى، ص ٢١٩.
(١٥) أشرف على تنفيذ الشنق حاكم ذو لقادر «على بك ابن شهوار» انتقاماً لوالده الذى شنق فى نفس المكان قبل ٤٥ سنة بأمر من السلطان قايتباى:وذلك لأنه كان فى رعاية المماليك ثم انضم إلى العثمانيين (راجع د. أحمد فؤاد متولى ص ٢٢٢).
(١٦) منذ شنق طومان باى عند باب زويلة، نشأت علاقة خاصة بين الأهالى وهذا الباب، فهو يذكرهم بتلك اللحظة الحزينة. ولسنوات طويلة، ظل كل من يمر بهذا الباب يتوقف.. ليقرأ الفاتحة على روح طومان باى.. وسكن الباب بعض المتصوفة فمنح تسمية خاصة هى «باب المتولى» أو «بوابة المتولى»، وقيل إن «المتولى» هو أحد أسماء طومان باى قبل أن يتولى السلطنة، وحتى الآن فإن السيدات الشعبيات اللاتى يعانين من العقم يذهبن إلى هذا الباب اعتقاداً منهن أنه مكان مبروك ويمكن أن يساعدهن على الإنجاب. وبشكل عام، نسج الأهالى حول هذا الباب قصصاً ترقى إلى مستوى الأساطير.. ودخل باب زويلة أيضاً الأدب العربى، فقد أنشأ محمد سعيد العريان (سنة ١٩٤٧) روايته البديعة «على باب زويلة» والتى تحكى قصة طومان باى وهزيمته وضياع استقلال مصر.. وتحول طومان باى إلى بطل من أبطال السير الشعبية التى يرددها الرواة والمنشدون لينضم بذلك إلى عنترة بن شداد.. وأبو زيد الهلالى والظاهر بيبرس وغيرهم «راجع د. عبد المنعم ماجد.. طومان باى».. وأيضا إدوارد وليم لين «عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم».

الفصل الرابع

ترحيل المصريين

«ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهاليها وتغربوا إلى بلد لم يطؤوها قط»

حين أُخبر السلطان سليم بنبأ القبض على خصمه طومان باى تنفس الصعداء وقال «الآن ملكنا ملك مصر» [1]. وصفا الجو لسليم فى مصر بشنق طومان باى، واختفى أى احتمال لقيام أية مقاومة لوجود العثمانيين فى مصر، وبدا الأمر أمام الأهالى وكأنه فى طريق الاستقرار، فقد دخل سليم مصر، وقتل وأحرق كما شاء، وانتقم من الذين قاوموه، وشنق خصمه السلطان طومان باى علناً على باب زويلة.. إذن، لم يعد ينقصه شيء.. واطمأن الأهالى لبعض الوقت يلملمون جراحهم ويتجرعون أحزانهم.. ولكن خاب ظنهم، فما زال فى جعبة سليم الكثير من المفاجآت المحزنة لهم.

وذات صباح، سرت فى القاهرة شائعة مخيفة أقضت مضجع الجميع فى العاصمة، فقد تردد أن السلطان سليم قرر أن يأخذ عدداً من المصريين معه عند عودته إلى استانبول.. كانت الشائعة غريبة.. ولغرابة الشائعة، لم يصدقها كثيرون.. المكذبون استندوا إلى أن الأمر كله مجرد «كلام» وأن «سليم» حقق حلمه فى أن يستولى على مصر وأن يسقط دولة المماليك. أما الذين صدقوا الشائعة، فقد اعتمدوا على أن «سليم» يمكن أيضاً أن يفعل أى شيء.. وهل هناك أبشع من شنق سلطان مصر على باب زويلة؟!. واعتمدوا على الحكمة القائلة «لادخان بغير نار».. على العموم، انتظر الجميع أن تحسم الأيام هذا الأمر وتقرر إن كانت الشائعة لها أساس من الصحة أم لا!

لم يطل الانتظار بالأهالى.. فقد انتشرت الشائعة يوم الأربعاء (٢٤ ربيع أول سنة ٩٢٣ - ١٧ ابريل ١٥١٧)، ولم يكد يأتى يوم الجمعة حتى ثبت أنها صحيحة تماماً.

فى صباح ذلك اليوم (الجمعة) اجتمع عدد من كبار رجال «ابن عثمان» ووزرائه فى المدرسة الغورية (التى كان قد بناها قانصوه الغورى) لتحديد المسافرين إلى

استانبول، وأخذوا فى استدعاء المطلوبين.. ولنتأمل فئات ونوعيات الذين تقرر سفرهم «أعيان الناس من القضاة والشهود والمباشرين والتجار.. وأعيان تجار المغاربة وتجار الوراقين وتجار الشرب والباسطية وجماعة من البردادرية والرسل».. وبذلك اتضح أن اختيارهم وقع على الصفوة الثقافية فى مصر «القضاة والشهود».. ففى زمن لم يكن هناك غير الفكر الدينى، كان هؤلاء هم المفكرون والمثقفون ورجال الرأى.

واختاروا أيضا رجال الرأسمالية المصرية من «كبار التجار» الذين يقودون حركة نقل البضائع والتجارة بين مصر ودول العالم، ويبعثون بالرحلات لاستكشاف الأسواق والبضائع الجديدة. ولم يكتف وزراء ابن عثمان بذلك، بل طلبوا أيضا الحرفيين «طائفة من السوقة المتسببين والمرخمين والمبلطين والحدادين وغير ذلك».. وفى زمن لم يكن هناك جامعات ولا مدارس فنية، كان هؤلاء الحرفيون هم المعلمون وكبار المهندسين الذين أجادوا هذه الفنون وأتقنوها ويعلمونها للأجيال التالية لهم، وهم الذين أنشأوا البيوت المملوكية والمساجد والمدارس وأبدعوا المشربيات والأبواب والسقوف والسجاجيد وصنعوا الصوانى المكفتة وغيرها وغيرها، وهم الآن يطلبون للرحيل عن وطنهم. ولم تنته بعد قائمة المطلوبين..فقد طلبوا «جماعة من أعيان اليهود».. كان اليهود المصريون جزءاً أساسياً فى المجتمع، وعملوا فى حوالى «مائتين وخمسين حرفة يدوية فضلاً عن ممارستهم لحوالى مائة وسبعين نمطاً من النشاط فى مجالات الاقتصاد والإدارة والتعليم والتجارة والمال.. وكان اليهود موجودين فى الجهاز الإدارى والحكومى بنسبة أعلى من نسبتهم السكانية فى المجتمع [٢]. وربما لهذا السبب، لم يطلب العثمانيون أى يهودى ولكن طلبوا مجموعة من أعيانهم.

تم تحديد الذين سيرحلون إلى استانبول، وتم استدعاؤهم إلى المدرسة الغورية حيث أعلموا بالأمر، ولم يطلق العثمانيون سراحهم ليعودوا إلى بيوتهم وأعمالهم ثانية، بل «ألزموا كل واحد منهم بأن يحضر له بضامن يضمنه.. فلما أحضروا لهم بضمان، أطلقوا سراحهم إلى حال سبيلهم».

لقد وضعوا القيد الذين يضمن لكل مطلوب أن يسافر، وهو الضامن الذى يمكن أن يؤخذ به إذا تخلف أو امتنع عن السفر، وهذا يعنى أنه لم يكن هناك مجال

للاختيار أو الاعتراض على طلب السفر.. فالموضوع كله أمر مفروض واجب النفاذ.

بعد ثلاثة أسابيع بالضبط، بدأت عمليات الترحيل.. وكان أول الراحلين جماعة من اليهود، خرجوا إلى ميناء بولاق وتوجهوا من هناك إلى الإسكندرية ولم يخرجوا فرادى بل «أخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا..». وكان ذلك يوم الجمعة الموافق ١٧ ربيع آخر سنة ٩٢٣ ه ١٠ مايو ١٥١٧م ..على جارى العادة.. وفى نفس اليوم خرجت مجموعة أخرى من المهنيين «خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين، وفيهم من مسلمين ونصارى، حتى طائفة من الفعلة...». وهكذا خرج فى اليوم الأول ليس فقط ممثلون لمعظم المهن، ولكن أيضاً أفراد من جميع الأديان الموجودة فى مصر.. الإسلام والمسيحية واليهودية.. والأمر المؤكد أن العثمانيين لم يقصدوا ذلك قصداً، ولكن أبناء الأديان الثلاثة كانوا يعيشون نسيجاً اجتماعياً وحضارياً واحداً وتلقوا المأساة معاً وعايشوها جميعاً، فالظلم لا يفرق بين دين وآخر ولكنه يعم الجميع ويشملهم.

مر ذلك اليوم بهدوء يملؤه الحزن والألم لإخراج أبناء البلد.. أما اليوم التالى فلم يمر بنفس الهدوء، بل حدث فيه ما كشف عن المشاعر الحقيقية للمصريين تجاه إخراجهم من وطنهم. كان المفروض فى ذلك اليوم (السبت) أن يخرج مجموعة من القضاة والشهود المطلوبين للسفر.. وفى اللحظة الاخيرة، اعترض اثنان من القضاة على السفر.. كل بطريقته.. كان أحدهما شافعياً والثانى حنفياً.

أما الشافعى، فكان القاضى شمس الدين الحلبى.. أراد أن لا يغادر وأعلن ذلك صراحة وببساطة، فكان الرد سريعاً وعاجلاً.. حمل عنوة من بيته إلى بولاق حيث السفينة التى ستقله إلى الإسكندرية وقد «قاسى من العثمانية غاية البهدلة من الضرب وأنزلوه المركب على رغم أنفه».. كان القاضى الشافعى بسيطاً وساذجاً: تصور أنه يكفى أن يبدى اعتراضاً على الترحيل فيعفى عنه. أما زميله الحنفى، فقد كان أكثر إدراكاً لتركيبة العثمانيين، لذا فقد اعترض بشكل آخر: اختفى تماماً وغاب عن الأنظار، وهرب إلى حيث لم يستطيعوا الإمساك به، وربما خرج من القاهرة أو عاش باسم جديد متخفياً؛ إنه بدر الدين ابن الوقاد.. وقد أثار

هروبه حنق العثمانيين وغيظهم، فهاهو قاض يعترض عليهم وينفذ رأيه وهم أهل القوة والجبروت.. لذا، لم يجدوا غير الضامن الذى ضمنه حين أُعلم بالسفر ليعاقب هو، وكان الضامن هو «يونس» نقيب الجيش.. «حصل نقيب الجيش من الدفتردار مالا خير فيه وبهدلة.. وهم بضربه».

كان ضرب القاضى الشافعى ومعاقبة ضامن القاضى الحنفى الذى هرب رسالة شديدة الوضوح للأهالى، فعلى الضامن أن يكون رقيباً على من ضمنه وإلا سينال أقسى العقوبة إذا هرب. وأنه لا مفر من سفر من طلب إلى السفر.. وكان ما حدث مفجراً لمزيد من الأحزان لدى الجميع، فعلى الذين يسافرون أن لا يتحملوا فقط ألم هجران وطنهم وفقدان أهلهم، بل كان عليهم أن يتحسبوا للمصير الذى ينتظرهم حيث يذهبون إلى مجتمع آخر ووسط أناس لا يعرفون لغتهم، ولا كيف سيستقبلونهم، ولا ما الذى سيجرى عليهم هناك، فلربما بيعوا هناك فى سوق الرقيق، وهذا هو ما يحدث عادة للأسرى وللمخطوفين وكانوا هم الاثنين معاً.

وإذا كان المطلوبون للرحيل قد تركوا أحراراً فى القاهرة، واكتفى العثمانيون بمن يضمنهم، فإن الأمر سيختلف بمجرد بلوغ السفينة التى أقلتهم من بولاق عبر النيل إلى الإسكندرية، حيث عوملوا كأسرى.. ففى الاسكندرية كان عليهم أن ينتظروا عدة أيام حتى يكتمل وصولهم من القاهرة لتقلهم السفينة إلى استانبول، وقد أمر سليم الأول بأن يقضوا أيامهم فى الاسكندرية داخل سجونها «رسم بأن الجماعة الذين أتوا من مصر يسجنوا فى الخانات وفى أبراج الإسكندرية إلى أن يتكاملوا». أما زوجاتهم، فقد وضعن فى أماكن منفصلة «وضعوهم فى الأبراج ونساءهم فى الخانات» والخانات هى فنادق ذلك العصر.

قدر عدد الذين أخرجوا من مصر بألف وثمانمائة، وقدر بعدة آلاف.. وإذا أدركنا أن عدد سكان القاهرة كان قرابة ٢٥٠ ألفاً، فهذا يعنى أن السلطان سليم قد انتقى صفوة الصفوة، وهم عدد لا بأس به. وبمعيار اليوم، حيث بلغ فيه سكان القاهرة أكثر من ١٢ مليون مواطن، فإن هذا الرقم يقترب من المائة ألف.. وبخروجهم انهارت الصناعات والحرف فى مصر، بالإضافة إلى أن هناك «خمسين

صنعة» تعطلت وبطلت أثناء وجود سليم فى مصر.

وقد ساد العنف والرعب فى مصر أيام رحيل المصريين.. وموطن الحزن أن المصريين اعتادوا أن يستقبلوا الآخرين فى وطنهم، جاءهم الفاطميون والأكراد والمماليك وغيرهم وغيرهم.. الجميع يأتون ويذهبون وهم باقون.. ملح الأرض وطينها.. أما هذه المرة، فقد انقلبت الآية، جاء العثمانيون ليخرجوا بعضاً منهم.. والدلالة الرمزية أنهم لم يعودوا ملاكاً لأرضهم، ولا أصحاباً لوطنهم.. بل هناك من يطردهم منه، ويحكم عليهم بالنفى والترحيل.

وقد سيطر الرعب على الأهالى، فقد كان توقعهم أن يقوم الجند العثمانيون باختطاف من يعن لهم وحمله عنوة معهم، خاصة من السيدات والصبيان والجوارى. وبالفعل، فإن المنادين كانوا يجوبون العاصمة من أقصاها إلى أدناها يحذرون النساء والصبية والجوارى والعبيد من احتمال تعرضهم للاختطاف «...نادوا فى القاهرة بأن لا عبد ولا جارية ولا امرأة ولا حتى صبى أمرد يخرجون إلى الأسواق حتى يسافر العسكر، ذلك خوفاً عليهم من التركمان أن يخطفوهم ويسافروا بهم».

لم يهتم العثمانيون بإبداء دوافعهم لترحيل هذا العدد من المصريين.. ولم يكن يغنيهم فى شىء أن يعلنوا أسبابهم، فما سألهم أحد عن ذلك، ولم يكن هناك خيار أمام الذين فرض عليهم أن يهجروا وطنهم.. ولكن المصريين كانوا مشغولين بالأمر، يفكرون ويحاولون البحث والتنقيب.. واهتدى تفكيرهم إلى سببين، الأول : أن «سليم» يريد بناء مدرسة باسمه فى استانبول تشبه مدرسة الغورى التى أبدى إعجابه بجمال بنائها وعمارتها.. ويبدو أن هذا السبب لم يقنع الجميع، خاصة وأن العدد الذى سافر ضخم ويفوق بكثير مجرد مدرسة.. بالإضافة إلى أن هناك أناساً ليست لهم علاقة بالبناء أساساً مثل القضاة والشهود والتجار.. ورغم ذلك تقرر سفرهم.. ولذا فإن الآراء ذهبت إلى السبب الثانى: هو أن عادة السلاطين العثمانيين، إذا دخلوا مدينة، يفعلون فيها نفس الذى فعله سليم فى القاهرة، «يأخذ من أهلها جماعة يمضون إلى بلاده ويحضر جماعة إلى تلك

المدينة عوضاً عن الذين أخذهم منها». وتردد آنئذ أن «سليم» أحضر مجموعة من استانبول ليقيموا بمصر بدلاً من الذين أخرجوا منها.

والواقع أن أحداً من المؤرخين لم يذكر لنا شيئاً عن هؤلاء الذى أحضرهم سليم إلى مصر، ولا كم عددهم، ولا نوعية المهن التى يمتهنونها، ويبدو أن الأمر مجرد تكهن وزعم بلا مصداقية، ولا يجوز أن نعتبر الجند الذين جاءوا لحكم مصر وإدارة الأمور فيها بديلاً عن المصريين الذى أخرجوا، فهؤلاء الجند جاءوا للغزو أولاً ثم للحكم فيما بعد.. وسواء أخذ سليم أحد المصريين معه أم لم يأخذ، فإن دور هؤلاء الجند قائم ومرتبط بوجود الدولة العثمانية ذاتها فى مصر.

لم تنقطع أخبار الذين سافروا من مصر.. فبعد أن غادروا الإسكندرية، وصلت إلى القاهرة مكاتبات تفيد بأن إحدى السفن التى تقلهم قد غرقت ولم ينج أحد من ركابها «غرقت فى البحر الملح، وغرق فيها للناس جملة أموال، وغرق منهم نحو أربعمائة إنسان ومنهم جماعة من الأعيان الذين خرجوا من مصر».

بعد ذلك بأكثر من عام عدة، فى رمضان ٩٢٤هـ سبتمبر ١٥١٨م، حضر إلى القاهرة شخص عثمانى قادم من استانبول ويحمل معه رسائل من المصريين هناك إلى ذويهم وأصدقائهم فى مصر. ولم تكن الرسائل أقل سوءاً من المكاتبات السابقة، فقد كشفت هذه الرسائل عن حجم المعاناة التى يعانونها هناك، بل إن عدداً غير قليل منهم لم يستطع أن يتكيف مع الحياة فى العاصمة العثمانية، وانتابهم الهم الشديد وماتوا «ذكروا فى كتبهم وفاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه إلى استانبول».. وقد كانت هذه الرسائل تذكر المصريين بجرمهم والمهانة التى أصابتهم. ومع ذلك، فإن «سليم» كان ماضياً فى طريقه، فلم يكد يمر شهر على وصول ذلك الشخص الذى يحمل الرسائل الحزينة، حتى أرسل سليم يطلب مصريين آخرين إلى استانبول ومن عدة مهن.. ففى شهر شوال عام ٩٢٤ هجرية اكتوبر ١٥١٨، وصل مرسوم إلى «خاير بك» يطلب فيه سليم إرسال خمسة مباشرين إلى تركيا، وحدث معهم نفس الذى حدث مع إخوانهم الذين سبقوهم فى السفر، فقد احتجزوا فى القلعة وطلب منهم مطلب غريب «اكتبوا وصاياكم..

ويوم الجمعة تسافرون..»، كان معنى كتابة الوصية واضحاً.. إنه ذهاب بلا عودة.. وإذا كان المصريون قد اجتهدوا فى العثور على تفسير يبرر خروج المصريين قبل ذلك مع سليم ليطمئنوا أنفسهم بأنهم قد يعودون ثانية، إلا أن ما حدث لهم فى البحر وفى استانبول كان يؤكد أنه سفر بلا رجوع، أما أهل المطلوبين، فإنهم لم يودعوهم بل فعلوا شيئاً آخر؛ إذ أقاموا جنازاتهم وتلقوا فيهم العزاء حين أنزلوا من القلعة إلى «بولاق» للسفر «فقاموا نعيهم ودقوا عليهم بالطارات».

الطريف هذه المرة أن المباشرين المطلوبين عرضوا رشاوى على خاير بك ليعفيهم من السفر ويتحايل على المرسوم، كأن يرد على الخنكار سليم بأنهم مرضى ولا يستطيعون السفر ولكن المحاولة فشلت؛ لا لأمانة أو التزام من خاير بك أو تعفف عن قبول الرشوة فما كان ذلك يوماً واحداً، وإنما خشية من بطش سليم، بالإضافة إلى أنه فى النهاية كان منفذاً للمراسيم فقط، وكان من بين الذى سافروا هذه المرة الأمير يوسف البدرى وزير الديار المصرية.

ولم تتوقف طلبات سليم، فما كاد المباشرون الخمسة يسافرون حتى - أرسل يطلب اثنين من لاعبى الشطرنج فى مصر، وكانا الأبرز فى تلك اللعبة، وكان سليم قد لعب معهما أثناء وجوده فى القاهرة وأعجب بمهارتهما. وظل مصير هذه المجموعة الأخيرة معلقاً - المباشرون الخمسة ولاعبا الشطرنج - فقد قيل أنه حين وصلت السفينة بهم جزيرة «أقريطن»، خرج عليهم «طائفة من الفرنجة الروادسة». وهنا اختلفت الآراء فقد قيل وقع قتال بين الطرفين أدى إلى قتل المصريين جميعاً، وقيل إنهم لم يقتلوا بل اختطفوا أو اقتيدوا إلى الجزيرة عراة تماماً، وهناك أكرمهم حاكم الجزيرة وأرسلهم إلى سليم، وقيل لم يصلوا نهائياً إلى استانبول، وخفت الحديث عنهم بعد ذلك.

فى العام التالى لهذه الواقعة، عاد إلى مصر بعض الذين أخرجوا إلى استانبول وكانوا من المهنيين والحرفيين «السيوفية والحدادين والبنائين والنجارين وغير ذلك من الصناع».. ولعودتهم حكاية، فقد كلفوا بإنشاء جامع وحمام لسليم، فأنجزوا ما طلب إليهم، ولما جاء سليم يفتتح المسجد « وقفوا وقالوا: « إن

خلفنا أولاد وعيـال وقد أنهينا العـمل الذى رسم به الخندكـار ومـا بقى لنا من شغل.. فوافق».

ولكن هذه الموافقة لم تكن نهائية، فقد سمح لهم فقط بأن يزوروا مصر ليطمئنوا على عيالهم وأولادهم. وبرغم أنهم يدركون أن عودتهم إلى مصر ليست إلا لأيام فقط، فقد سعدوا أنهم سيرون وطنهم ثانية، وحين تأهبوا للعودة حدث لهم نفس الذى حدث حين كانوا يتهيئون للرحيل من القاهرة، فقد طلب إلى كل منهم أن يحضر ضامناً يتعهد بمسئوليته عن عدم حضوره إذا سولت له نفسه أن يقيم نهائياً فى مصر أو يهرب ولا يعود إلى استانبول.

وصلت هذه المجموعة إلى مصر ليذكروا الأهالى مجدداً بالمأساة التى كانوا يحاولون أن يتناسوها وزاد الأمر حزناً وبؤساً حين أفاد هؤلاء بأن معظم الأعيـان الذين رحلوا لقوا حتفهم هناك.. ولا نعرف تفاصيل حياة هؤلاء الأعيان هناك، وهل كانوا أحراراً طلقاء أم أودعوا السجون؟! أما الحرفيون والصناع، فقد كان لهم شأن آخر، فقد عاشوا هناك على أمل العودة ثانية إلى وطنهم، وتصوروا أن بعض المهمام ستوكل إليهم وبمجرد إنجازها سيسمح لهم بالرجوع وهكذا اعتكفوا على عملهم، أدوه بإخلاص وبتفان شديدين، أخرجوا كل فنونهم وإبداعهم، وأقاموا المساجد وأسسوا القصور والحمامات، وأطلعوا العثمانيين على روائع لم يشهدوها من قبل فإذا هى قائمة داخل مدينتهم.. كل ذلك على أمل أن ينال مجهودهم الرضا ويقال لهم «عودوا». ولكن جاء موقف «الخندكار» سليم، بالسماح للبعض بالزيارة المؤقتة فقط لمصر، ليقطع أملهم وليدركوا أنه لن يتركهم أبداً ينعمون بالعيش فى وطنهم وبين أهلهم، وأنهم سيعيشون غرباء ويموتون غرباء، ولذا فإن سلوكهم هناك بدأ يتغير، وصمموا على أن يعودوا.. فإن كان سليم قد أكرههم على المجيء، فإنهم مازال بإمكانهم أن يهربوا ويعيشوا فى مصر هاربين.

وبعد عدة شهور من زيارة مجموعة الحرفيين، فى جمادى الأولى ٩٢٥هـ مـايو ١٥١٩، تشجعت مجموعة أخرى وهربت من استانبول، ولم يتمكن العثمانيون من ملاحقتهم.. فوصلوا إلى مصر وعاشوا فيها متخفين بأسماء جديدة،

ويقيناً أنهم تخوفوا من أن يكشفوا أنفسهم ويعلنوا حقيقة أمرهم فيعادوا ثانية إلى السجن الكبير فى استانبول أو يوسطوا فى القلعة.

كان نجاح هذه المجموعة فى الهرب مشجعاً للآخرين.. ففى العالم التالى قامت مجموعة ثانية تكرر نفس المحاولة، ولكنهم لم يوفقوا.. وكان ينتظرهم مصير سيىء «جماعة من الأعيان تسحبوا من استانبول.. قضاة ومباشرون. فلما بلغ الخندكار تسحبهم من استانبول، شق عليه ذلك وأرسل خلفهم ستين شاويشاً فقبضوا عليهم من أثناء الطريق ووضعوهم فى الحديد، ودخلوا بهم إلى استانبول وهم مشاة فى الحديد ثم سجنوهم..»، وأدى هذا المصير إلى مزيد من الإحباط للمصريين هناك، ولأن الحياة هناك كلها سجن، فإن عدداً آخر أقدم على محاولة الهروب، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً ولكنهم لم يجبروا على العودة ثانية إلى استانبول بل كان هناك حل ثالث وهوأن يقتلوا على حدود استانبول – وهذا هو المصير الذى كان ينتظر كل من يحاول الهروب. بل وقيل إن بعض العثمانيين كانوا يشجعونهم على الهروب والعودة إلى وطنهم، ويسهلون لهم ذلك فى البداية، وفى الطريق كان هناك من ينتظرهم ليخطف أرواحهم.. ثم تلقى أجسادهم فى الصحراء!!

طوال ذلك العام، لم تتوقف محاولات الهروب.. وأخيراً جاء الفرج من الله على المصريين بوفاة سليم فى «ذى القعدة ٩٢٥ﻫ اكتوبر ١٥١٩م».. وتولى بعده السلطنة ابنه الأوحد «سليمان» فى سنة ١٥٢٠م.

والمتوقع من المصريين «المأسورين» فى استانبول أن يشعروا بارتياح وبفرحة فى أعماقهم لوفاة آسرهم. وكان عليهم أن يترقبوا سلوك السلطان الجديد سليمان معهم، ليتبينوا مصيرهم. وقد كان «سليمان» عند حسن ظنهم وموافقاً رغبتهم، فعقب تقلده سيف السلطنة نصحه وزيره «برى باشا» بأن الخطوة الأولى التى عليه أن يفعلها هى «العفو عن التجار المصريين «وكانوا قد سجنوا لا لسبب إلا لأنهم كانوا قد أغضبوا سليماً السلطان السابق» [٣]. وربما كان هؤلاء المسجونون هم الذين حاولوا الهرب أو طالبوا بإعادتهم إلى وطنهم. وإذن، فإن «سليم» لم يكن

قد اكتفى بترحيلهم ولكنه أودع بعضهم السجن هناك.

وفى رمضان من العام التالى لتوليه السلطنة، سمح «سليمان» لبعض القضاة بالعودة إلى مصر زائرين فقط. وفيما يبدو، فإنه لم يحدث معهم ما سبق أن حدث لبعض زملائهم من طلب ضامن يضمنهم للعودة ثانية إلى استانبول. وفى شهر رمضان سنة ٩٢٨ هجرية يوليو ١٥٢١م، سمح السلطان سليمان لعدد كبير من المصريين الذين ظلوا على قيد الحياة بالعودة إلى وطنهم نهائياً، ويبدو أن قرارات العفو كانت تصدر فى «شهر رمضان» كمناسبة دينية عزيزة على المسلمين.. «اعتق جميع الأسراء الذين كانوا باسطنبول من أهل مصر، ولم يبق بها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين وجماعة من أعيان الديار المصرية والأمراء المماليك والچراكسة».

ومن تأمل الفئات التى يسمح لها بالعودة، نكتشف أن السلطان سليمان طبق نفس سياسة والده ولكن اختلف الأسلوب، فقد أبقى على كل الشخصيات التى يمكن أن يجتمع حولها المصريون، أو الرموز التى تذكرهم باستقلالهم وبكبريائهم السياسى والوطنى.. وهؤلاء قد انقطعت أخبارهم تماماً عن مصر ويبدو أنهم ذابوا هناك.

أما الذين سمح لهم بالعودة، فهم بعض الحرفيين والتجار، وهؤلاء كانوا قد أعطوا خبرتهم وقدموا فنونهم للأتراك وعادوا أشباحاً مهزومة ومكسورة؛ بقايا وأطلالاً مما كانوا عليه ذات يوم. ولذا، فإن عودتهم أرضت المصريين ولكنهم ربما لم يشعروا بالبهجة.. فحين عفا عنهم السلطان سليمان وأعادهم، فإنه ربما فعل ذلك ليموتوا فى وطنهم بدلاً من أن يموتوا لديه.. فنحن لا نعرف أنهم عادوا إلى ممارسة مهنهم وأدوارهم فى مصر. وكانت النتيجة أن تراجعت مستويات الفنون والعمائر والبيوت فى مصر.. «... حرمت البلاد من جهود هؤلاء الفنانين، فأخذت فنون القاهرة فى التأخر بينما تقدمت فنون إستانبول وترعرعت» [٤].

هوامش الفصل الرابع

(١) راجع ابن زنبل ص ١٣٢ .

(٢) راجع فى ذلك د. قاسم عبده قاسم، «اليهود فى مصر– من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى» ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – سنة ١٩٨٧ ، الفصل الثالث.

(٣) راجع «سليمان القانونى سلطان الشرق العظيم» ؛ تأليف هارولد لامب، ترجمة شكرى نديم، ومراجعة أحمد ناجى القيس ومحمود الأمين، شركة النبراس للنشر والتوزيع؛ بغداد، ١٩٦١ ص ١٨ .

(٤) د. سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – ج ٥ ص ٦ – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – ١٩٨٣ .

الفصل الخامس

إحراق المساجد والمقامات

لم يغفر الضمير المصرى والعربى لجنود نابليون أنهم اقتحموا «الأزهر» بخيلهم وامتهنوا حرمة الجامع العريق، وربما لو تأملنا الواقعة من وجهة النظر الأخرى لالتمسنا للجنود الفرنسيين بعض العذر، فلو تحول الأزهر إلى مركز ومقر للمقاومة والتصدى للوجود الفرنسى فى مصر، باتت خطط النضال تخرج منه، واستطاع طلابه ومشايخه – خاصة مشايخ الصف الثانى[1] منهم – تحريك الأهالى وقيادة المقاومة أثناء ما عرف بثورة القاهرة الثانية. يضاف إلى ذلك أن كبار قادة الحملة – نابليون وكليبر خاصة – لم يكونوا من المتدينين ولا يرون لدور العبادة ذات الهيبة والاحترام التى تعامل بها أتباع الديانات المختلفة. ومع ذلك، يظل ما ارتكبه الفرنسيون تجاه الجامع الأزهر جرماً حضارياً وأخلاقياً بكل ما تعنيه الكلمة.

ولقد جاء الانتقام سريعاً وعنيفاً حين قام أحد طلاب الأزهر «الشيخ سليمان الحلبى» باغتيال قائد الحملة الجنرال كليبر فى حديقة قصره، وكان يسكن قصر الألفى، بأن طعنه عدة طعنات نافذة بسكين حاد. لكننا، مع أننا لم ننس للفرنسيين اقتحام الأزهر، نتجاهل تماماً ما فعله «سليم الأول» وجنده فى المساجد والأماكن ذات التقدير الدينى لدى المصريين فى القاهرة، وهو ما يفوق بكثير ما فعله جنود نابليون مع فارق مهم هو أن الفرنسيين لم يكونوا مسلمين ولا زعموا أنهم ممثلو الإسلام وحماته فى العالم.

ففى أثناء القتال بين المماليك والعثمانيين، وعقب اقتحام طومان باى للقاهرة، قام بعض المماليك بمطاردة عدد من الجند العثمانيين فى أحد شوارع القاهرة، وكانت المطاردة فيما يعرف الآن بشارع المعز لدين الله الفاطمى من ناحية وكالة الغورى وقريباً من «باب زويلة»، فهرب الجند إلى داخل جامع «المؤيد»، والمسجد بالطبع مكان آمن ولن يمسهم أحد بسوء داخله. ولكن، بدلاً من أن يمكثوا بالمسجد إلى حين تهدأ الأمور ثم يخرجون ثانية، إذا بهم يصعدون إلى

مئذنتى المسجد، ويتخذون منها مركزاً لإطلاق الرصاص عشوائياً حول المسجد، وهو ما أدى إلى قتل وإصابة عدد من الأهالى الأبرياء والذين تصادف مرورهم بالمنطقة، ثم إن الأتراك شحتوا جماعة من العثمانية فهربوا إلى مواذن الجامع المؤيدى [٢]. وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول إلى باب زويلة.

كانت تلك المنطقة، كما هى الآن، من أكثر أماكن العاصمة حيوية، ولذا يمكن أن نتخيل ضخامة عدد المصابين. واستمر الجند فى إطلاق الرصاص، مما منع الأهالى من الاقتراب تماماً من منطقة الجامع.. وهكذا تحول هذا الجامع معهم من دار للعبادة ولتلقى العلم وتدارس الدين إلى ساحة للاقتتال، وانقلبت المآذن من موقع يتمتع بجلال روحى، إذ يصعد منه الأذان ليملأ جو القاهرة إيماناً وسكينة إلى مقر للقتل وإشاعة الخوف والإرهاب فى نفوس الأهالى.

لم تكن موقعة جامع المؤيد بالحادث الفردى أو العارض الذى يمكن التغاضى عنه، أو البحث عن بعض المبررات له، ولكنه كان بداية لسلسلة من الأعمال ضد المساجد والجوامع، وإذا كان بعض الجند قد جعلوا من «المؤيد» ساحة للاقتتال، فإن قائدهم «سليم» طور الأمر إلى حرق بعضها. كان طومان باى، حين عاود اقتحام القاهرة ودخولها عقب معركة الريدانية، قد جعل من جامع شيخو بالصليبة مقراً له. فلما انفض عن المماليك، انسحب من الجامع والقاهرة. وعلى الفور، انطلق الجنود فى الأهالى قتلاً وانتقاماً، ولكن كان لابد للجامع أن يصيبه هو الآخر جزء من الانتقام والعقاب، وهكذا قام الجنود بإحراق الجامع «.. وأحرقوا جامع شيخو، فاحترق سقف الإيوان الكبير والقبة التى كانت به..»، وظل الجامع محترقاً لفترة طويلة.. وإذا كان الجامع قد أحرق، فما بالنا بالإمام.. وهو الآخر كان ينتظره العقاب.. وهكذا قبض على الشيخ يحيى بن العداس وكان من الأشراف.. ومثل بين يدى سليم «.. ثم قبضوا على الشيخ يحيى ابن العداس خطيب الجامع وأحضروه إلى بين يدى سليم شاه بن عثمان، فهم بضرب عنقه..» ولكن لم يقدر للشيخ يحيى أن يقتل، ويبدو أن الموضوع كان مثار لفظ واستياء عام؛ الأمر الذى دعا الخليفة إلى التوجه إلى سليم وطلب العفو منه عن الشيخ

يحيى «.. فلما بلغ الخليفة ذلك ركب وأتى إلى ابن عثمان وشفع فى ابن عداس وخلصه من القتل..».

ولا نعرف بالضبط هل حرض الخطيب المصلين على التصدى لسليم أم لا، وهل شارك فى القتال أم لا، ولكن لو أنه فعل ذلك لما نجا من القتل ولما عفا عنه سليم، فلم يكن يتسامح فى أى موقف مضاد له حتى ولو كان بسيطاً.

وأهم ما تثبته هذه الواقعة أن إحراق المسجد لم يكن تصرفاً أهوج من الجند، ولكنه تم بعلم سلطانهم وبتوجيهه [٣]. وامتد العدوان العثمانى إلى معظم المساجد الكبرى بالقاهرة.

كان المماليك قد لجأوا عقب هزيمتهم إلى المساجد يهربون داخلها من فتك العثمانيين، ظناً منهم أن وجودهم داخل المسجد سيخفف من العقوبة التى تنتظرهم أو تذكر خصومهم بالمشترك الدينى بينهما، ولكن «..صاروا العثمانية تهجم الجوامع، وتأخذ منها المماليك الجراكسة، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجوامع والمدارس والمزارات ويقتلون من فيها من المماليك والجراكسة..» [٤].

ولا يتعين علينا أن نتوقع ممن يقتحمون المساجد أن يخلعوا نعالهم أو يتوضئوا ويصلوا ركعتى السنة (تحية المسجد) كما يفعل عامة المصريين والمسلمين، فهم هنا سيدخلون شاكى السلاح، متأهبين للقتل وإسالة الدماء داخل «بيت الله» .امتد العدوان إلى المدارس.. وهى جامعات ذلك الزمن . أما المزارات والأضرحة، وهى موضع التقدير والمهابة لدى معظم المصريين وموضع الرجاء لدى المعوزين والمأزومين منهم، فقد تعرضت هى أيضاً للهجوم والمداهمة من جانب الجنود بل وأسيلت الدماء داخلها.

هاجم الجند الأضرحة فى البداية بحجة البحث عن المماليك الهاربين منهم. وبالفعل، كان بعضهم محتمياً بتلك الأضرحة والمزارات ولم يشفع لهم وجودهم داخلها. وفيما بعد، عاود الجنود اقتحام الأضرحة.. ولكن، فى هذه المرة، لم يكن هناك مماليك هاربون بل كان الهدف هو سرقة النذور.

يأتى فى مقدمة هذه الأجنحة والمقامات، مقام السيدة نفسية- رضى الله عنها - يشعر المصريون تجاهها بحب خاص ينبع من أنها أساساً تنتمى إلى «آل البيت».. والمصريون لديهم هوى خاص تجاه آل البيت.. خاصة نسل أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وكانت السيدة نفسية حفيدته.. ولذا، حين ضيق العثمانيون الحياة على المصريين ذهب بعضهم إلى مقام السيدة نفسية[٥] يحتمون به، وكان هذا المقام هو خط الدفاع الأخير لهم، وربما توهموا أن قدر صاحبة المقام سيروع هؤلاء الجند الغزاة، ولكنهم لم يكن ليروعهم إيمان ولا أى شئ، لذا هاجموا المقام «..وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفسية رضى الله عنها، فدخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كان عندها وربط الزاوية، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك والجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها..». ولم تتوقف السرقة والاعتداء على مقام السيدة نفسية فقط بل امتد ذلك إلى غيره من المقامات.. وكان التبرير جاهزاً وقائماً أنهم يبحثون عن المماليك.. فقد ذهبوا إلى مقام الإمام الشافعى «.. هجموا على مقام الإمام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من البسط والقناديل فى حجة المماليك والجراكسة..». وذهبوا أيضاً إلى مقام الإمام الليث «..وكذلك مقام الإمام الليث بن سعد أيضاً نهبوا ما فيه..».

هوامش الفصل الخامس

(١) كان بعض كبار العلماء والمشايخ قد هادنوا نابليون وضمهم إلى الديوان مثل الشيخ المهدى والشيخ الشرقاوى.

(٢) يقع هذا الجامع الآن عند باب زويلة، وتطل مئذنتاه على نقطة الخيامية والدرب الأحمر، وقد أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهرى، وبدأ فى إنشائه فى الرابع من شهر ربيع الأول سنة ثمان وعشرة وثمانمائة قبل دخول العثمانيين مصر بقرن كامل. وقال عنه المقريزى فى خططه - الجزء الثانى ص ٣٢٨ - «.. هو الجامع الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه أن منشئه سيد ملوك الزمان، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى..». ثم زود الجامع بمكتبة كانت تضم حين إنشائه خمسمائة مجلد. وفى سنة ٨٢٢، رتبت فيه دروساً للشافعية والمالكية والحنابلة، وفى تلك السنة أيضاً رتب فيه تدريس القراءات السبع للقرآن الكريم، وخلع السلطان على قاضى القضاة شمس الدين محمد بن سعيد الديرى الحنفى كاملية صوف بفرو سمور، واستقر فى مشيخة التصوف وتدريس الحنفية، وهكذا كان المسجد إلى جوار دوره الدينى، مدرسة كاملة، لتدريس المذاهب الأربعة والقراءات والتصوف (راجع المقريزى وخطط على مبارك).

(٣) هز إحراق الجامع وجدان المصريين. وقد وضع أحد الشعراء قصيدة مطولة يحكى فيها ما فعله العثمانيون بمصر، وتوقف أمام ما جرى لجامع شيخو قائلا:

لهفى على شيخو وجامعه الذى ... قد كان للصلوات مجتمع الورى
درست معالمه بحرق صار من ... بعد التزخرف والرياضة أغبرا

والجامع أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصرى فى سنة ستة وخمسين وسبعمائة ورفق بالناس بالعمل فيه وإعطائهم أجورهم، وهذا يعنى أنه حين أحرق الجامع قد قارب قرنين من الزمان. وقال عنه المقريزى «..هذا الجامع من أجل جوامع ديار مصر..».
حول الجامع وصاحبه الأمير شيخو، راجع «خطط المقريزى» - مكتبة الثقافة الدينية بالعتبة. ج ٢ ص ٣١٣. وانظر أيضاً: الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ ج ٥ ص ٨٣.

(٤) إذا تأملنا أسماء المساجد التى ذكرها ابن إياس، فهى كانت وإلى اليوم أكبر وأعرق مساجد القاهرة والعالم الإسلامى كله. فالجامع الأزهر هو الجامعة الإسلامية الكبرى. وجامع الحاكم أو «الأنور» هو الجامع الذى بناه الحاكم بأمر الله، ويقع قريباً من باب الفتوح، وهو تحفة معمارية وفنية. أما جامع ابن طولون، فهو أسبق تاريخياً من كل تلك المساجد، قد بناه أحمد بن طولون فى بداية تألق شخصية مصر الإسلامية، ويتميز هذا الجامع بمئذنة فريدة فى طرازها إذ لها بوابة مستقلة خارج المسجد. ويقع الآن عند نهاية شارع قدرى بالسيدة زينب. وإذا كانت المساجد الكبرى لم تسلم من اقتحام وانتهاك العثمانيين، فما بالك بالمساجد الصغيرة والزوايا والتى كانت تملأ القاهرة.

(٥) هى نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكانت «من الصلاح والزهد

على الحد الذى لا مزيد عليه». وقد جاءت إلى مصر مع زوجها فى «رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائة. وكان لقدومها إلى مصر أمر عظيم تلقاها الرجال والنساء بالهوادج من العريش»، ويروى أن الإمام الشافعى لما دخل إلى مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث.. «وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم وهو إلى الآن باق كما كان». وقيل إن قبرها أحد المواضع المعروفة بأن الدعاء فيه مستجاب، وأول من بنى على قبرها عبد الله بن السرى بن الحكم أمير مصر، ومكتوب على اللوح الرخامى بباب ضريحها أن البناء تم فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٢ هجرية، وكان بالضريح قنديل فى القبة فوق المقصورة بجوار الضريح «فإن من كان بعينه داء من رمد ونحوه من أهل المحروسة وغيرها (رجالاً ونساء) يذهب فى ليلة الحضرة إلى الزيارة فيبيت هناك ويكحل عينيه من زيت القنديل ويدفع للوقَّاد ما تيسر من النقود.. ويرون فى ذلك شفاء.. فإذا تم الشفاء، كانوا يأتون بالنذور والهدايا.. ولذلك القنديل شهرة تامة فى هذه الخاصية. وحين كانت السيدة نفيسة فى مصر وكثر زوارها أرادت أن ترحل من مصر إلى بلاد الحجاز «فشق على أهل مصر وسألوها الإقامة..».

وقد كان – ومازال – يزور قبرها كبار العلماء والرحالة الأجانب الذين جاءوا إلى مصر «أقبل على زيارتها فى الحياة وبعد الممات خلق لا يحصون من العلماء والخلفاء والأولياء وغيرهم».

وكان يتولى نظارة هذا المقام الخلفاء العباسيون وذكر السخاوى فى كتاب «المزارات» أن أول من تولى النظر عليها المعتصم بالله أبو الفتح بتوقيع سلطانى من السلطان الناصر حسن سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة. وسيظل المقام فى نظارة الخلفاء حتى إذا جاء سليم انتزعه من أيديهم.

وإلى اليوم، لا يزال هذا المقام موضع إقبال الكثيرين من المصريين من البسطاء.. وحتى معظم الوزراء الحاليين والسابقين.

– راجع على باشا مبارك – الخطط التوفيقية، ط ٨٦؛ ج ٥ ص ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩.
– راجع أيضاً د. سعاد ماهر، مساجد مصر.

الفصل السادس

تخريب القلعة وبيوت القاهرة

كان ترحيل الفنيين والصناع المصريين إلى استانبول نوعاً من التفريغ البشرى لمصر؛ وما لبث أن أعقبه سطو مادى على ممتلكات المصريين ومنجزاتهم التاريخية. واتجه سليم أولاً إلى القلعة.

وتعود «القلعة» إلى عصر صلاح الدين؛ فقبله كانت قصور الفاطميين فى قلب القاهرة؛ ولكن صلاح الدين أراد أن يؤسس مقراً للحكم؛ يكون فى موقع متميز يصعب على مديرى الانقلابات أو على أى غازٍ اقتحامه أو حتى الوصول إليه؛ وتم اختيار تلك الصخرة من هضبة المقطم والتى انفصلت عنها لتكون موقعاً للمقر الجديد. وعهد صلاح الدين إلى وزيره الأمير بهاء الدين قراقوش؛ صاحب الشهرة الواسعة لدى المصريين بالطغيان بإنشاء القلعة.. وجلبت الحجارة لها من أهرامات الجيزة؛ وتم تعبيد طريق خاص من الهرم إلى مكان البناء لنقل الحجارة[1]. ويذكر المقريزى أن قراقوش «..هدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجد بها من الحجارة..». ولم يمتد العمر بصلاح الدين ليسكنها إذ لم ينته العمل فى بنائها إلا على عهد الملك الكامل محمدا بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب؛ وكان الرحالة «ابن جبير» قد زار مصر أثناء بناء القلعة؛ وكتب أن من بين الذين شاركوا فى البناء بعض الإفرنج؛ وهم بعض الأسرى الصليبيين الذين كانوا فى القاهرة؛ وذكر أيضًا أن آلافاً من العمال والبنائين المصريين قد شاركوا فى بنائها.

ومنذ الملك الكامل، سكنها كل ملوك وسلاطين مصر..

وداخل القلعة-أيضًا-استقبل «الظاهر بيبرس» الخليفة العباسى المستنصر بالله الذى فر من بغداد أمام التتار وجاء إلى مصر هارباً ومستنجداً؛ وقلد الخليفة المستنصر ملك مصر الظاهر بيبرس «عمامة سوداء موشاة بالذهب وعباءة أرجوانية والسلسلة وخاتم العرش من الذهب؛ وهذه الأشياء كانت شعار الدولة العباسية..

وبتقليد بيبرس هذه الأشياء صار حاكماً شرعياً لمسلمى الشام والحجاز ومصر.

وقد أشار ابن جبير إلى أن كل سلطان كان يضيف إليها (القلعة)؛ فقد أنشأ السلطان حسن–صاحب الجامع العظيم الذى يحمل اسمه–قاعة البيسرية؛ وكانت تضاء بتسعة وأربعين ثريا من الفضة البيضاء الخالصة والمطلية بالذهب.. وكان ارتفاعها ثمانية وثمانين ذراعاً.. وبها شبابيك من الذهب الخالص وقبة مصوغة من الذهب وشرفات من الذهب أيضاً.. أما الحوائط فمغطاة بالرخام الملون(٢) .

وأنشأ السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن قلاوون قاعة «الدهيشة» وجيء بحجارة خاصة لها من حلب وحماه واستدعى الرخام لها من سائر الأمراء(٣) ولم يفت السلطانة شجرة الدر(٤) أن تترك بصمتها هى الأخرى فأنشأت «صالة الأعمدة..».

وظل سلاطين مصر يسكنون القلعة ويحكمون من خلالها حتى جاء سليم الأول وصعد إلى القلعة؛ وفعل بها ما لم يخطر ببال أحد.. «..ربط الخيول من الحوش إلى باب القلعة إلى عند الإيوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة وصار زبل الخيل هناك بالكيمان على الأرض.».

ثم بدأ رجاله فى تخريب القلعة وانتزاع أغلى ما فيها «..شرع فى فك الرخام الذى بالقلعة فى قاعة البيسرية وقاعة الدهيشة وقاعة البحرة والقصر الكبير وغير ذلك من أماكن بالقلعة..» وانتهوا من فك الرخام فاتجهوا إلى ما يليه «..فك العواميد السماقى التى كانت فى الإيوان الكبير..» وانتقلوا من العواميد إلى المكاحل–المدافع–النحاسية التى كانت بالقلعة.

وما حدث فى القلعة لم يكن نهاية المطاف؛ فقد كان على الأهالى أن يحملوا هذه الأشياء من القلعة وينقلوها إلى السفن فى ميناء بولاق(٥) لتحملها إلى الإسكندرية ومنها إلى «استانبول» والذى حدث أن «أرباب الدرك» اجتمعوا فى أحد الأيام حول بوابات القاهرة..باب النصر..باب الفتوح..باب زويلة؛ وغيرها؛ وصاروا يقبضون على كل من يدخل إلى المدينة أو يخرج منها؛ حتى لو كانوا من القضاة.. فلم يفرقوا بين غنى وفقير ولا رئيس ووضيع.. كما يقرر ابن إياس.. ثم

أخذوا يربطونهم جميعًا فى الحبال؛ والناس فى ذهول مما يحدث لهم؛ «حصل لهم بهدلة من الضرب والسك وخطف العمايم..»؛ فلا يعرفون لماذا جمعوا ولماذا ربطوا فى الحبال؛ ولا يدركون ما الذى يراد بهم؛ وأخيراً انكشفت الأمور واتضح المقصود «..أسفرت هذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس حتى يسحبوا المكاحل النحاس الكبار التى كانت بالقلعة..».

وسحبوا المكاحل ثم الأعمدة فيما بعد؛ وكانوا يسحبونها بطريقة عجيبة «..صاروا يربطون الرجال بالحبال فى أرقابهم ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم..» لقد عاملوا «الرجال» كما تعامل حيوانات الجر..الخيول والثيران وغيرها. وحين أنزلوا الأعمدة؛ ارتجت منطقة الصليبة المجاورة للقلعة؛ وكانت لحظة أليمة غرق معها المصريون فى حزن عميق.

فرغ العثمانيون من تخريب القلعة، فاتجهوا إلى باقى بيوت القاهرة يفعلون فيها الشىء نفسه «..صار يحيى بن نكار يركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين فيهجمون قاعات الناس ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملوّن فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء قاطبة حتى القاعات التى فى بولاق وقاعة الشهابى أحمد ناظر الجيش وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار وأبناء الناس وغير ذلك..».

أما يحيى بن نكار هذا الذى كان يقود «المرخمين»، فإنه واحد من الذين سارعوا إلى تأييد ابن عثمان ومساندته بمجرد وصوله إلى مصر؛ وسيصبح بعد رحيل سليم الأول «داودار» (٦) القاهرة..أما المرخمين الذين زينوا البيوت والقاعات وعمروها وعاشوا للبناء وللإعمار، جاءهم الوقت ليفرض عليهم أن يخربوا ما شيدوه فى سنوات؛ وأن يهدموا التراث المعمارى والفنى فى القاهرة والذى تكون خلال عقود من السنين.. وربما قرون.

وإذا كانت الظروف قد فرضت على «المرخمين» أن ينقلبوا من البناء إلى الهدم، فقد فرضت على عامة المصريين أن يقوموا بتعبئة ذلك الرخام كله فى صناديق ويحملونه على أكتافهم إلى السفن فى ميناء بولاق لإعمار استانبول!!

هوامش الفصل السادس

(١) هذا الطريق هو شارع الهرم اليوم.
(٢) المقريزى ص٢١٢.
(٣) المقريزى ص٢١٢.
(٤) كانت القلعة مسرحاً لصراعات شجرة الدر.. وبها قتلت.. ووجد الأهالى جثتها عارية إلى جوار أحد أسوار القلعة ذات صباح.
(٥) كان مجرى النيل فى منطقة بولاق.. وظل كذلك حتى تم تحويل مجراه فى عهد الخديوى إسماعيل ليمر فى مجراه الحالى.
(٦) كلمة «داودار» جاءت من الكلمة العربية «دواة» ومن اللاحقة الفارسية «دار» بمعنى الصاحب والقيم؛ وتعددت مواقع وأدوار صاحب هذا المنصب لكنه فى الإدارة العثمانية كان يعنى «رئيس الكتاب» - راجع د. أحمد السعيد سليمان؛ مرجع سابق.

الفصل السابع

نهب المكتبات والمخطوطات العربية

«.. وأخذوا منها من كل شيء أحسنه.. ما لا فرح به آباؤه ولا أجداده من قبله أبداً..»

ابن إياس

حين وقعت الواقعة وسقطت الدولة المصرية أمام جحافل العثمانيين، كانت مصر هى المركز الثقافى للعالم الإسلامى. كان انتقال الخلافة إلى مصر قد أدى إلى انتقال الفقهاء والشعراء والمؤرخين إليها. وبشكل عام، فإن وجود الخلافة فى مصر قد أدى إلى ترعرع الثقافة العربية على أرضها «..وحيث تكون الخلافة يكون الإيمان والعلم..» [1].

وبعد غروب شمس الإسلام فى الأندلس، انتقل عدد كبير من فقهاء وعلماء الأندلس إلى القاهرة. ومع استقرار دولة المماليك وانقضاء التهديدات والمخاطر الضخمة من حولها، عقب انتهاء الحروب الصليبية من جانب، وانتهاء العداء مع المغول بدخولهم الإسلام، فإن كل هذا قد انعكس على الأوضاع الثقافية. وقد عبر ابن خلدون عن ذلك فى المقدمة قائلاً: «..لا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر، فهى أم العالم، وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع..». ورغم أن المماليك لم يكونوا مصريين ولا عرباً بالأساس، فإنهم اعتبروا أنفسهم كذلك. والحق أنهم لم يعرفوا لأنفسهم وطناً غيرها وارتبطت حياتهم بها وبمصيرها، فلم يكن لهم انتماءات عائلية أو عنصرية خارجها. ورغم أن لغتهم لم تكن فى الأساس العربية، فقد كانوا يتعلمون الخط العربى والقرآن والشرع حتى عرفوا بالكتابية [2]. ومن خلال ابن إياس، ندرك أن السلطان قانصوه الغورى كان يجيد اللغة العربية وكانت له مجالس ومناظرات مع الفقهاء.. وأن له ديوان شعر بالعربية تم تحقيقه ونشره فى القاهرة مؤخراً.

أما السلطان طومان باى، فإنه لم يكن فقط يجيد العربية بل كان يردد الأشعار بالعامية المصرية. ومن صفحات ابن زنبل الرمال نعلم أنه، عند هزيمته الأخيرة أمام سليم، وقف على سفح الهرم الأكبر وألقى قصيدة مطولة يشرح فيها معاركه وسر هزيمته أمام سليم. وعلى العموم، فإن مجرد اختياره للهرم ليقف

ويلقى عنده قصيدته الأخيرة فى تلك اللحظة إشارة لا تخلو من دلالة على مدى انتمائه إلى مصر.

كل هذا انعكس على الثقافة. وهكذا امتلأت القاهرة بالمدارس. وكانت كل مدرسة تضم مكتبة ضخمة بالإضافة إلى مكتبات المساجد، وكذلك المكتبات الخاصة فى بيوت الأمراء وكبار التجار.. وغيرهم وغيرهم. أما الجوامع خارج القاهرة فى المدن المصرية، فكانت بدورها مدارس للعلم وبها مكتبات ضخمة أيضاً. هكذا كان الحال فى الإسكندرية وفى رشيد وفى طنطا وفى المنصورة وفى قوص بالصعيد.. وغيرها وغيرها.

وقد رصد تقى الدين المقريزى فى خططه أكثر من سبعين مدرسة بالقاهرة من بينها المدرسة الفاضلية التى ضمت مكتباتها فى وقت معين مائة ألف مجلد، وكذلك مكتبة المدرسة المحمودية التى أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار، وعمل بها خزانة كتب «.. لا يعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها..» كما يقول المقريزى، وقد ضمت هذه الخزانة - المكتبة - حوالى أربعة آلاف مجلد «مخطوط».

أما المكتبات الخاصة، فقد كانت هى الأخرى غنية بالكتب فى مختلف فروع العلم والمعرفة. ولم يكن يبخل أصحابها بالمال فى سبيل اقتناء الكتب واجتلاب الخطاطين للكتابة.. أو كانوا.. يكتبون بأنفسهم.. إحدى هذه المكتبات كانت تضم مائة ألف وأربعة وعشرين مجلداً، وكانت مملوكة للقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيانى.

جاء سليم ليستولى على هذه المكتبات وينهب ما فيها من المخطوطات والمجلدات لينقلها إلى استانبول. والغريب أن هذه الجريمة.. تخريب الذاكرة العربية وسرقة تراثها وإبداعاتها على مدى قرون.. لم يستغرق من ابن إياس سوى بضعة كلمات، يقول: «..ثم إن الوزراء استدرجوا لأخذ الكتب النفيسة التى فى المدرسة المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية، وغير ذلك من المدارس التى فيها الكتب النفيسة، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها..».

ورغم الكلمات الشحيحة التى ذكرها «ابن إياس»، فإنها تكفى لتقديم صورة عامة لما تم، فالنهب امتد إلى كل المدارس ولم تستثن منه مدرسة واحدة، وإن كان قد ذكر عدة مدارس وكانت هذه هى الأكثر شهرة.. ويؤكد «المؤرخ الكبير» أن النهب كان مركزاً على الكتب النفيسة!!

ونحن نعرف من المقريزى أن المدرسة المحمودية كانت بها مكتبة تضم أربعة آلاف مجلد، وقد نهبت إلى حد أن على مبارك وجد فى هذه المكتبة، بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون، حين كان يؤسس دار الكتب الخديوية وبدأ ينقل إليها مخطوطات المكتبات والمساجد، ٥٨ مخطوطاً فقط [٣]، وبالطبع، فإن معظم المخطوطات كانت قد حملت إلى إستانبول. ومازالت هذه المخطوطات فى إستانبول.. وقد استدل عليها بعض الباحثين المصريين نظراً لأنها كانت «محبسة» وتحمل شارة المدرسة المحمودية.

وتكمل مؤرخة إسلامية معاصرة الصورة قائلة: «..انتزع الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعها مكتبات العاصمة التركية. ومازال منها إلى اليوم بقية كثيرة فى مكتبات استانبول ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام المصريين فى القرن التاسع الهجرى مثل المقريزى والسيوطى والسخاوى مما يندر وجوده بمصر نفسها صاحبة هذا التراث العلمى..» [٤].

وذكر عدد من المهتمين بالمخطوطات العربية أن «سليم» نقل من مصر كل المخطوطات المهمة التى تناولت تاريخ مصر، وهذه المخطوطات جميعها فى مكتبات إستانبول الآن.

أما د. عبد الوهاب عزام فيؤكد أنه من بين المكتبات التى نهبت، كانت مكتبة قانصوه الغورى، وكان بها النسخة الأولى من شاهنامه الفردوسى، وكان الغورى قد أمر بترجمتها – نظماً– إلى التركية.. ولا تزال هذه النسخة أيضاً فى استانبول. والحقيقة أننى حاولت البحث عن رقم إحصائى بعدد المخطوطات والمجلدات التى نهبها سليم من مصر، ولكننى لم أعثر على مثل هذا الإحصاء.

ويعود الأمر إلى عدة أسباب من بينها أن المجلدات لم تكن تحمل أرقاماً أو

بطاقات خاصة للفهرسة كما هو سائد الآن. ولا يمكن أن نذهب إلى أن كل المخطوطات القديمة الموجودة فى تركيا قد أخذت من مصر، ذلك أن «سليم» نهب مكتبات البلدان العربية التى مر بها فى كل من حلب ودمشق وغزة وغيرها وغيرها، بالإضافة إلى مكتبات الحجاز والمدينة واليمن، وقد سيطر العثمانيون على هذه البلدان بسقوط مصر والشام.

وتمتلك تركيا الآن أعلى رقم من المخطوطات العربية فى العالم الاسلامى، بل ويفوق ما لديها كل ما لدى العواصم الإسلامية الكبرى.. فهناك فى مكتبات استانبول حوالى ٢٥٠ ألف مخطوطة وحوالى ٨٠٪ منها باللغة العربية، والواقع أن نسبة كبيرة من هذه المخطوطات حملت من مكتبات مصر والشام والحجاز.. وكان السطو على المخطوطات، وتخريب المكتبات بداية مرحلة شديدة الظلمة فى تاريخنا «..كانت المدينة الإسلامية تتألق بعلومها وفنونها فى ظل دولة المماليك مدة ثلاثة قرون، فجاء الفتح التركى بولايته ليطفئ هذا السراج المنير مدى ثلاثة قرون أخرى، وأصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور.. واختفى من حلقاته كثير من العلوم التى كانت زاهرة من قبل..» [٥].

هوامش الفصل السابع

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٦٦.
(٢) ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو؛ ١٩٨٨ ص ٣٠١.
(٣) د. أيمن فؤاد السيد.المكتبات الوطنية؛ ورقة مقدمة إلى ندوة مائة عام على وفاة على باشا مبارك، والتى عقدت بمقر المجلس الأعلى للثقافة فى سبتمبر ١٩٩٣.
(٤) د. سيدة كاشف: «الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية الإسلامية».. من كتاب: تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية؛ هيئة الكتاب، ١٩٩٣.
– مجالس السلطان الغورى – صفحات من تاريخ مصر فى القرن العاشر الهجرى؛ د. عبد الوهاب عزام لجنة التأليف، عام ١٩٤١.
(٥) د. سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون؛ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية؛ ١٩٧١– الجزء الأول.

الفصل الثامن

نقل الخلافة واعتقال الخليفة

لم يكن إخراج الخبرات المصرية إلى استانبول، آخر أحزان المصريين، فقد أصابهم سليم بصدمة أخرى؛ إذ طلب إلى الخليفة أن يغادر مصر هو الآخر.

كان الخليفة العباسى (أمير المؤمنين) أعلى سلطة فى العالم الإسلامى. وبعد اجتياح التتار للعاصمة العباسية بغداد، هرب الخليفة «المستعصم» إلى القاهرة.. وبعد نجاح الجيش المصرى فى عصر بيبرس فى هزيمة التتار وصدهم عن العالم الإسلامى فى «عين جالوت»، استقر الخليفة نهائيًا فى مصر. وظلت الخلافة العباسية قائمة اسمًا ومقرها القاهرة؛ وكان وجود الخليفة فى مصر يعطيها قدراً من الثقل الروحى والسياسى. فالخليفة فى النهاية رمز وحدة العالم الإسلامى وقوته.. وحتى وإن لم يكن يمارس أى دور عملى، فإنه كان يملك ولا يحكم؛ واعتاد سلاطين مصر وفقهاؤها، وكذلك جمهورها، على توقير الخليفة والاعتزاز به؛ومنحوه ما يستحقه من هيبة وتقدير. فلما سقطت مصر أمام العثمانيين وباتت محتلة، وذهب عنها سلطانها واستقلالها، فإن الغازى سليم قرر أيضا أن يأخذ معه كل مصادر قوة مصر وثقلها السياسى والحضارى. وبينما كان المصريون مهمومين بأنباء ترحيل الذين وقع عليهم الاختيار من العمال والفنيين، امتد الأمر إلى الخليفة «أرسل ابن عثمان يقول أمير المؤمنين: اعمل مايرقك حتى تسافر إلى استانبول..».

ولم يتوقف هذا المطلب عند شخص الخليفة فقط بل امتد أيضًا إلى من يمتون له بصلة قرابة «..قالوا له سافر أنت وأولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك. فلما بلّغوا ذلك تنكدوا أجمعين..». والطبيعى أن يتنكدوا وأن يحزنوا، فقد عاشوا فى مصر منعمين مكرمين؛ أما سليم فلا أمان له.. وكان لابد للخليفة أن يقلق ويضطرب، فهو لم يطلب للسفر وحده؛ ولكن كل من يمت له بصلة

قرابة حميمة؛ أى كل من يمكن أن تئول إليه الخلافة؛ أو يحق له- نظرياً- أن يطالب بها.

ولم يكد يمضى أسبوعان على إبلاغ الخليفة بالاستعداد للرحيل؛ حتى كان قد غادر القاهرة هو وأسرته. وحزن المصريون يومها كثيراً؛ ويمكن لنا أن نتخيل مدى حزنهم؛ فقد كان ذلك أقوى وأعنف نتيجة لسقوط الدولة المملوكية؛ وأدركوا أن قاهرتهم لم تعد جوهرة ودرة العالم الإسلامى؛ وفقدت الامتياز الذى نالته من قبل «..حصل للناس على فقد أمير المؤمنين مصر غاية الأسف؛ وقالوا : قد انقطعت الخلافة من مصر وصارت باستانبول وهذه من الحوادث المهولة..» .

كان الخليفة مرهوب الجانب لدى السلطان سليم وهو فى القاهرة؛ وكان نافذ الكلمة؛ وحين انتقل إلى استانبول نشبت خلافات مادية بين الخليفة وأولاد عمه؛ فأثاروا الأمر لدى السلطان «وتكلموا فى حقه بالباع والذراع» ..وكان الخليفة قد أقبل على مفاتن الدنيا «أظهر فتكا زائداً وأنهم العيش واشترى له جوارى يضربن بالجنك» ووجد السلطان فى ذلك فرصة جيدة للإطاحة بالخليفة؛ فأبعده خارج استانبول وضيق عليه العيش. وظل الخليفة مبعداً محددة إقامته حتى توفى السلطان سليم وتولى السلطنة ابنه سليمان؛ الذى بادر على الفور بالإفراج عن الخليفة؛ واستدعائه إلى استانبول ثانية وأكرمه ورد له اعتباره.

وهناك قضية دارت حولها الخلافات؛ وهى «الخلافة» وهل تنازل الخليفة العباسى عن الخلافة للعثمانيين أم لا؟ وقد ذهب عدد من المؤرخين إلى أنه لم يحدث تنازل رسمى ومن ثم فإن السلاطين العثمانيين لا يستحقون لقب الخلافة.. البعض الآخر يرى أن العثمانيين لم يشغلوا أنفسهم بهذه القضية إلا بعد دخول إمبراطوريتهم فى مرحلة الضعف والانهيار. أما المؤرخين العثمانيين، فيميلون إلى أن الخليفة العباسى تنازل تماماً عن الخلافة. ولكنهم يختلفون فى توقيت هذا التنازل؛ هناك من قال إنه تم عقب هزيمة مرج دابق.. وأن التنازل جرى فى حلب وفى حضور «قضاة المذاهب الإسلامية الأربعة» ؛ وهناك من يرون أن التنازل تم عملياً منذ أن لقب سليم الأول على منابر القاهرة بعبارة «خادم الحرمين الشريفين» .

وأياً كان الرأى، وهل تنازل الخليفة العباسى أم لم يتنازل، فإن العثمانيين قد نالوا الخلافة منذ أن سيطروا على مصر والشام بسيوفهم وبنادقهم.. واستحقوها بمنطق السلاح والقوة.

وعقب استيلائهم على مصر، نقل إلى إستانبول بقية رموز الخلافة؛ فإلى جوار الخليفة حمل أيضا بردة الرسول ولواؤه وباقى مخلفاته؛ وهى ما زالت موجودة بإستانبول إلى الآن.

الفصل التاسع

تجاور البرقع وبنات الخطأ

«.. قصدى أمشّى نساء مصر على طريقة نساء إستانبول مع أزواجهن..»

قاضى عسكر

سيدى جلبى

تمتعت المرأة المصرية والعربية بقدر غير قليل من الاحترام والتقدير على عهد الدولة المملوكية، وشاركت فى مناحى الحياة المختلفة، واعترف بها المجتمع شريكاً فاعلاً فى إطار التقاليد الإسلامية [١] . والنموذج الحى لذلك هو «شجرة الدر» التى حكمت مصر وانتقلت معها الدولة الأيوبية إلى المملوكية، وخطب على المنابر باسمها. ومنذ دخول العثمانيين إلى مصر، تغيرت النظرة العامة إلى المرأة.. وربما لا نجد فى أقوال ومواقف السلطان سليم شيئاً خاصاً بالمرأة سوى ما ذكره ابن إياس من أنه كان بين الذين رحلوا عن مصر سيدات «.. وفيهم نسوان أيضاً وأولادهم صغار ورضع..». ولم يذكر لنا المؤرخ شيئاً عن هوية هؤلاء النساء اللائى تم ترحيلهن.. هل هن زوجات..؟.. ولكن لو أنهن كذلك لما خصهن بالذكر.. ربما كن من أصحاب المهن المختلفة، خاصة وأنه كانت توجد سيدات فى الكثير من الحرف.. وفى المجالات الفقهية والثقافية، كانت هناك المحدثات والفقيهات والشاعرات ومحفظات القرآن.

أما جنود سليم الأول فقد اتخذوا اتجاهاً آخر فى التعامل مع السيدات «..تزايد منهم الفساد فى حق الناس. ثم صاروا يطلعون بالنساء إلى القلعة ويحشرون بها فى أطباق المماليك التى بالقلعة وصنعوا بالطباق أدناه بوزة وصارت حانة..»، وكانت الطباق قد بنيت أساساً لتدريب المماليك حين يشترون وتربيتهم تربية إسلامية.

وربما تصور البعض أن العثمانيين كانوا يصعدون بنوعية معينة من النساء وهن ما كن يسمين «بنات الخطأ»، ولكن الأمر غير ذلك.. لقد كن من عامة الشعب وكانوا يخطفوهن من عرض الطريق.. يكمل ابن إياس «..تزايد الفساد حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرقات والأسواق والأزقة فى النهار والليل..».

ويبدو أن الجند وجدوا أن الصعود بالنساء إلى القلعة يقتضى منهم وقتاً ومجهوداً فأخذوا فى الاعتداء على النساء فى الشوراع والطرقات.. لنتأمل الواقعة التالية «..قيل إنهم خطفوا امرأة عند سلم المدرسة المؤيدية وفسقوا بها جهاراً عند سبيل المؤيدية تحت دكان الذى يبيع الكعك والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ولم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم..»، شكا الناس إلى الوالى، نقلوا إليه ما يجرى من فسق وفساد.. وربما كان فى ذهن الأهالى موقف سابق للسلطان الغورى، فقد حدث فى عهده أن «شوش» بعض الجند على إحدى السيدات، فما كان من الغورى إلا أن «وسط» هؤلاء الجند (أعدمهم) أما هذه المرة فالواضح أنه لم يحدث حتى مجرد لوم للجند، بل إن المنادين كانوا يطوفون بالقاهرة، ومعهم التعليمات التالية «..أحد من الناس لا يضع على الطرقات خيال ظل ولا مغانى عرب ولا غير ذلك، ولا يطوع بزفة عريس إلى بعد العشاء، ولا يمشى فى الأسواق من بعد العشاء وأن الأسواق تغلق من بعد المغرب..».

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل إن الوالى (خاير بك) وجه باسمه نداء آخر أشد قسوة من النداء الأول «..إن خاير بك نادى فى القاهرة بأن لا امرأة تخرج من بيتها ولا صبى أمرد ولا يتوجهون إلى السيدة نفيسة ولا إلى مشهد الحسين ولا إلى بين القصرين..».

وتكمن أهمية هذه النداءات فى عدة أمور:

أولاً: أنها صادرة عن أعلى سلطة فى البلاد.. وهذا يعنى أنه عاجز عن ردع الجنود أو أن عقليته ترفض دور المرأة.

ثانياً: أنه يطلب إلى المصريين التخلى عن مباهج حياتهم وعن فنونهم «خيال الظل» والمغانى.

ثالثاً: أنه يضع بذور احتجاب المرأة وعزلتها عن الحياة العامة. ولا خروج إلى «بين القصرين» وهو أكبر متنزهات القاهرة أنئذ وبه أكبر حدائقها، وكان المطلوب أيضاً أن لا تخرج السيدات إلى الأضرحة والمقامات.

هذا الموقف سيكشف عنه بوضوح بعد ذلك بثلاث سنوات قاضى عسكر

«سيدى جلبى» الذى أعلن فور وصوله القاهرة «..قصدى أمشّى نساء مصر على طريقة نساء إستانبول مع أزواجهن..».

وبدأ «جلبى» يصدر تعليماته لتحقيق نيته وهدفه «..أن امرأة لا تخرج إلى الأسواق مطلقاً ولا تركب على حمار مكارى وأن لا يخرج إلى الأسواق إلا العجائز فقط..» والنداء كان صارماً إذ حدد عقوبة لمن لا يلتزم وينفذ التعليمات «..كل من خالف من بعد ذلك من النساء تضرب وتربط بشعرها فى ذنب إكديش، ويطاف بها فى القاهرة، فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر..». ثم عاد القاضى ليعلن ويؤكد ما سبق «..امرأة لا تخرج من بيتها مطلقاً ولا تركب على حمار مكارى مطلقاً..»، وعاد أيضاً ليقرر عقوبة جديدة وهذه المرة ليست على المرأة بل على صاحب الحمار الذى تركبه المرأة «..كل مكارى ركب امرأة شنق من يومه..». وكانت تلك العقوبة بداية لانحسار مهنة «المكارية»، فى تلك الفترة «..باعت المكارية حميرها قاطبة وبطل أمر الحمير المكارية..». واتجه العثمانيون بعد ذلك إلى زى المرأة وثيابها، كانت المصرية ترتدى الجلباب ذى الأكمام شديدة الاتساع والتى تكشف عن ذراع المرأة كاملاً وأجزاء من جسدها إذا رفعت يدها، فإذا بفرمان يصدر بتضييق الأكمام تماماً خاصة عن المرفق (٢).

امتد الأمر ليفرض على المصرية الزى العثمانى الكامل، ويتمثل فى العمائم المختلفة التى تغطى الرأس وتثقلها المجوهرات للنساء الأرستقراطيات والإكسسوارات العادية للسيدات الفقيرات، والملابس الطويلة التى تغطى الجسد كله.. ثم جاءت «التيزة» وهى السبلة والحبرة والبرقع.. وكلها من اللون الأسود وتكون فوق الملابس المنزلية.

لم يرض الأهالى بتعليمات «سيدى جلبى» فانتظروه ذات يوم فى طريق نزوله من القلعة وتحدثوا معه وكان يجيد العربية «..تكلموا الناس مع قاضى العسكر فى أمر النساء أن لا يمنعوا من طلوع الترب ودخول الحمام وزيارة الأقارب فأذن لهم فى ذلك. وأن المرأة لا تخرج الطريق إلا مع زوجها وأن لا يدخل الأسواق غير العجائز فقط، فسمح لهن قاضى العسكر بذلك، وأنهن لا

يركبن إلا الخيل والبغال دائماً فاستمروا على ذلك..».

والواضح أن الأهالى تمكنوا من الوصول إلى هذا الحل الوسط مع قاضى عسكر الذى سمح بمقتضاه بالخروج المشروط للمرأة وجاء بشكل استثنائى ليؤكد أن القاعدة وأن الوضع الأفضل والأمثل للمرأة هو عدم الخروج من المنزل، وإن اضطرت فهو خروج الضرورة والحذر (٣).

وقد يتصور البعض أن العثمانيين منعوا النساء من الحركة والخروج من البيت حرصاً على الأخلاق العامة (٤) ولكن وقائع تلك الفترة تنفى ذلك تماماً، فإنهم فعلوا ذلك مع مجموع النساء بينما تركوا فئة منهن لم يتعرضوا لهن ولم يضايقوهن، وهن «بنات الخطأ» كما كن يسمين آنئذ (٥).

ففى صيف ٩٢٥ هجرية (١٥١٩م) تأخر الفيضان، وكانت العادة حين لا يفيض «النيل المبارك» أن يدفع السلاطين بالقضاة الأربعة والفقهاء إلى تلاوة القران الكريم وقراءة صحيح البخارى والدعاء فى المساجد عن تصور أن تأخر الفيضان نوع من الغضب الإلهى.. لكن هذا العام حدث شيء مخالف، فقد أمر «خاير بك» بوقف بعض الانحرافات الأخلاقية لعلها تكون السبب فى امتناع الفيضان «..أمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة، ومنع بنات الخطأ من عمل الفواحش..»، ولم يشأ خاير بك أن يترك هذا الأمر مجرد كلام شفوى بل عمد إلى أشهر سيدة فى القاهرة تعمل فى هذا المجال وقبض عليها وعاقبها، وكان أسمها «أنس»...«..كانت ساكنة فى الأزبكية تجتمع عندها بنات الخطأ الذين يعملون الفاحشة..».. ولم تكن أنس تمارس شيئاً ممنوعاً ولا تعمل سراً بل كان لديها ترخيص وتدفع الضرائب المقررة عليها شهرياً «..وكان عليها مبلغ مقرر ترده فى كل شهر للوالى وكان أمرها مشهور..»، ولم يكتف «كبير الأمراء» بالقبض عليها ولكنه أمر بإعدامها وبطريقة غريبة، لسيت الشنق أو التوسيط كما كان سائداً «..رسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية زوجة شخص من الناس يقال له البغيض، كانت ماشية على طريقة أنس هذه فى جمعها لبنات الخطأ..».

وكانت عملية إغراقهما فى النيل مشهودة وتمت فى وضح النهار واحتشد العديد من سكان القاهرة لمتابعة هذا المشهد وهم سعداء ويهللون. وبعد إغراق أنس وبدرية، فاض النيل.. وهنا استراح «العثمانيون»، وعاد كل شيء كما كان.. وابتلع «خاير بك» نداءه السابق بإبطال المحرمات، وازدهرت «بيوت الخطأ» من جديد بل سمح لأبناء أنس أن يعودوا إلى ما كانت عليه السيدة الوالدة «..رسم ملك الأمراء أن أولاد المرأة أنس التى غرقوها لا يعارضون فيما يفعلونه من أمر جمع بنات الخطأ كما كانت تفعل أمهم أنس..».

ويرى «ابن إياس» أن إعادة أولاد أنس إلى نفس العمل تم بناء على ضغوط العثمانيين لأن هذه كانت مهنة معظمهم «..العثمانية تعصبوا فى إعادة ذلك، فإن أكثرهم كان يبيع البوزة فى الدكاكين..».

هوامش الفصل التاسع

(١) لعبت زوجات السلاطين وأمهاتهم أدواراً سياسية معينة، فهناك «خوند زينب» أحدى زوجات السلطان إينال التى «صارت تدير أمور المملكة من ولاية وعزل» وكانت إذا دخلت على السلطان الأشرف قايتباى يقوم لها ويعظمها بتعبير ابن إياس.. وغيرها كثيرات وامتد الدور السياسى إلى جوارى السلاطين وكن يتوسطن لرفع الظلم عن أفراد وفئات من عامة الشعب كما حدث سنة ٧٣٧ هجرى حين توسطت «ست حدق» مربية السلطان الناصر محمد بن قلاوون التى استطاعت أن ترفع ظلم الولاة عن التجار الذين كانوا يصادرون تجارتهم. ودلالة هذا أن المصريين، حكاماً ومحكومين، كانوا يعترفون بدور المرأة فلا يجد فئات المواطنيين غضاضة فى نقل شكواهم إلى السلطان عبر سيدة، والحكام أيضاً يستمعون ويستجيبون.. ويبدو أن هذا النفوذ الذى نالته المرأة كان يصيب بعض الفقهاء بالحنق فنددوا بذلك فكتب ابن تيمية محزراً «أكثر ما يفسد الملك طاعة النساء». ولكن المناخ العام لم يكن مستعداً لأن يؤخذ بهذا التحذير فالدور الذى لعبته المرأة كان فى كل مجالات الحياة السياسة والتجارة وحتى التعليم والثقافة. ولاحظ أحد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر حينئذ أن المرأة تتمتع بحرية كبيرة فى شوارع القاهرة وأسواقها ومتنزهاتها.. راجع د.أحمد عبد الرازق (المرأة فى مصر المملوكية). القاهرة سنة ١٩٧٥.

(٢) راجع فى ذلك، آمال المصرى «أزياء النساء فى مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧ – ١٧٩٨» رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآثار – جامعة القاهرة ١٩٩٣ : «الرسالة مخطوطة».

(٣) هذا السلوك الذى فرض على المرأة والمجتمع بات فى نظر الكثيرين منا إلى اليوم من صحيح الدين. وكما نرى، فإنه من صحيح النموذج العثمانى فقط ولا علاقة له بالدين ولا ينتمى أيضاً إلى السلوك المصرى الأصيل.. وحينما حاول رفاعة الطهطاوى فى كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» – ١٨٦٩ – أن ينبه إلى ضرورة أن تعود المرأة إلى دورها فى الحياة السياسية والاجتماعية، فإنه تعرض لهجوم شديد،ثم تكرر الأمر مع قاسم أمين حين أصدر كتابه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة». والغريب أننا نجد فى السنوات الأخيرة صيحات متعددة تطالب المرأة بالعودة إلى الزى العثمانى بدعوى أنه فريضة إسلامية.

(٤) الأخلاق هنا بالمعنى شديد التسطيح للكلمة والذى يربط بين الفضيلة وجسد المرأة، فتكون المرأة فاضلة بقدر ما تغطي من جسدها، وتكون غير ذلك بقدر ما تكشف من جسدها. وما استقر عليه الفكر الانسانى أنه لا علاقة بين الاثنين. يقول الطهطاوى فى تخليص الإبريز «..مدار عفة المرأة على حسن تربيتها وليس ما ترتديه من الثياب..».

(٥) «بنات الخطأ» أو بيوت الدعارة كانت متوفرة وموجودة طوال العصور الإسلامية ومصرح لها بالعمل، وكان تمنع من العمل فقط طوال شهر رمضان، وقد ألغيت هذه المهنة لأول مرة فى عهد محمد على سنة ١٨٢٤ ثم أعادها لورد كرومر عقب احتلال مصر حتى ألغيت سنة ١٩٤٧.

الفصل العاشر

الرحيــــــــل

«فما رحلوا عن الديار المصرية إلا والناس فى غاية البلية»

ابن إياس

ما أن فرغ سليم الأول من تحقيق أهدافه الرئيسية فى مصر حتى بدأ يستمتع بأيامه فيها قبل أن يعود إلى استانبول؛ فزار الأهرامات وتعجب من بنائها؛ وذهب إلى المطرية حيث بئر البيلسان؛ وزار مقياس النيل الذى بناه الفاطميون وأُخذ به؛ وقضى معظم وقته هناك.. وكان السلطان قانصوه الغورى قد أقام قصراً له هناكَ ليقضى فيه أيام الاحتفال بفيضان النيل المبارك ووفائه.. لكن «سليم» لم يشأ أن يقيم فى هذا القصر، فبنى لنفسه قصراً من الخشب فوق قصر الغورى.. وعند المقياس كان يجلس بين الصبيان والغلمان ومجالس الشراب؛ وكان يلعب الشطرنج ويشاهد أيضا «خيال الظل».. وفى بعض الليالى، كان يجلس «للفرجة قيل إن المخايل صنع صفة باب زويلة؛ وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه ولما انقطع به الحبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك..». سعد سليم إذ وجد فناناً يعيد عليه بالصوت والصورة أسعد منظر فى حياته؛ وليلتها أعطى لذلك المخايل مائتى دينار وقدم له خلعة «ألبسه قفطان مخمل مذهباً».. ولم يكتف بذلك، بل قال له: «إذا سافرنا إلى استانبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك». وفيما بعد، سافر ذلك المخايل؛ وقيل أيضا أن ستمائة فنان من فنانى خيال الظل سافروا إلى استانبول[1]؛ مما أدى إلى تأخير فن «خيال الظل» والذى كان يعد نواة لمسرح مصرى متقدم بالمعنى الحديث.. واستمتع سليم أيضًا بغراب كان لدى أحد الأهالى وكان الغراب ينطق بعبارتين «الله حق..الله ينصر السلطان».

كان للسلطان الغورى عند المقياس أيضا «ذهبية» غاية فى الحسن والفخامة؛ وكان سليم يعوم بها فى النيل كل ليلة مع الصبيان المرد.. وذات ليلة، هبت ريح عاصفة كادت معها الذهبية أن تنقلب ويغرق سليم؛ وقد أغمى عليه بالفعل؛ وقيل من شدة السكر. وفى ليلة ثانية، وهو يهبط من الذهبية، زلت قدمه

فى الماء وكاد أن يغرق لولا أن «الريس عبد القادر» قائد الذهبية جذبه من رقبته وأنقذه.. وفى مرة ثالثة، تعرض سليم لمحاولة اغتيال قام بها أحد أمراء طومان باى؛ إذ سبح فى النيل ولكن فى اللحظات الأخيرة اكتشف أمره وهرب؛ وهو الأمير قانصوه العادلى.. وقيل أيضا إن مجموعة من الإنكشارية كانوا يخططون أيضًا لاغتيال سليم. ويبدو أن كل هذا دفع «سليم» لأن يترك المقياس ويذهب إلى بيت «الأشرف قايتباى» المطل على بركة الفيل.. وتساءل الناس يومها كيف يترك المقياس ويذهب إلى بيت بين الدروب.

وزار سليم الإسكندرية.. وفى الطريق إليها، توقف فى مدينتى فوة ورشيد وأعجب بما وجده فى المدينتين.

قضى سليم أيامه الأخيرة فى مصر مستمتعاً ولاهياً.. لكنه «لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسًا عامًا؛ ولارآه أحد، ولا أنصف مظلومًا من ظالم فى محاكمته، بل كان مشغولاً بلذته وسكره وإقامته فى المقياس بين الصبيان والمرد..»

وفى يوم الخميس ٢٣ من شعبان عام ٩٢٣ هجرية؛ ١٠ سبتمبر عام ١٥١٧م، غادر القاهرة نهائيًا عائداً إلى استانبول.. وكان قد دخل القاهرة رسميًا يوم ١٥ فبراير، أما جنوده فقد دخلوها عقب معركة الريدانية مباشرة.. وقعت الريدانية يوم الخميس ودخل العثمانيون يوم الجمعة ٣٠ ذى الحجة ٩٢٢ هجرية؛ ٢٤ يناير ١٥١٧م.. وظل هو فى المعسكر ببولاق.. وبذلك يكون قد قضى فى مصر(القاهرة)ثمانية شهور إلا أسبوعاً كما ذكر ابن إياس، وتحديداً (٢٣٠) يومًا؛ وكان قد صلى الجمعة الأخيرة فى الأزهر؛ وقبل الرحيل بيوم واحد؛ عين «خاير بك» نائبًا عنه فى حكم مصر؛ وكانت نيته قد اتجهت إلى تعيين وزيره الأكبر «يونس باشا» فى نيابة مصر.. ولكنه، فيما يبدو، أراد أن يكافئ خاير بك، وأن يترك تابعاً له تبعية مطلقة عارفاً بالأحوال فى مصر.

كان يونسّ باشا «أحكم» العثمانيين؛ ولم يكن متحمساً من البداية لدخول مصر؛ ولم يكن يحب «خاير بك» ؛كان يراه مجرد خائن؛ وعقب خروج سليم من مصر قتل يونس باشا.. ويعود سبب القتل–كما يذكر ابن زنبل–إلى حوار دار بين

الاثنين قال خلاله يونس لسليم «ما الذى فعلته؟ أخذت البلاد من الجراكسة ثم أعطيتها لهم ثانياً؟وعاديتهم وقاتلتهم ثم صافيتهم؛ فما هذا الرأى؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك فى شىء من ذلك». كان سليم قد نصح خاير بك بأن يصافى الأمراء المماليك وأن يعطى الأمان للهاربين منهم؛ ويرد لهم اعتبارهم؛ وربما كان يونس باشا حانقاً بسبب ذلك أو أنه لم يتول نيابة مصر. لكن هل كان ذلك فعلا كل ما فعله سليم فى مصر.. أن قاتل المماليك ثم صالحهم وأخذ البلاد منهم ثم أعطاها لهم ثانية؟!!. الحق أن ذلك يعد تلخيصاً مسطحاً ومخلاً لما حدث. فالأمر أكبر من ذلك؛ إنه يتجاوز القتال والقتل؛ والنهب والسلب. ولكن ما حدث أنه سحب دور مصر ووضعها فى عالمها العربى والإسلامى. ولعل هذا ما عناه بالضبط ابن إياس حين قال عن مصر عشية مغادرة سليم لها «...ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة؛ لأنه خادم الحرمين الشريفين؛ وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين» ولنتأمل حال الأمور بمصر فى عهد خاير بك. لنكتشف حجم الانكماش والظلم الذى وقع على مصر والمصريين.

فى نفس العام –شهر ذى القعدة– حدث اعتداء من العربان على الفلاحين «نزل جماعة من العربان من نحو الجبل الأحمر بالقرب من سبيل علان؛ فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال محملة قمحًا وبطيخًا؛ فأخذوا منهم نحو أربعين جملا وذهبوا بهم إلى الجبل ومضوا بهم؛ ولم تنتطح فى ذاك شاشان...» فذهب الفلاحون إلى خاير بك يبكون ويشكون فتنكد لذلك كثيراً، ولكنه لم يسعه أن يفعل شيئًا... «لم يطلع من يديه شىء فى رد الجمال من أيدى العرب إلى أصحابها».

قبل ذلك، وفى يوم عيد الفطر، أقام خاير بك مائدة فى القلعة؛ حضرها القضاة الأربعة؛ وكان المفروض أن يحضرها الأمراء ولكن أحداً منهم لم يحضر «لم يطلع له أحد من هؤلاء؛ وخافوا أنها تكون مكيدة أو حيلة عليهم فلم يطلعوا». أجل، فقد كانت العلاقة بين الوالى–نائب السلطان–

والأمراء ممتلئة بالشكوك والأحقاد والمخاوف.

وبينما كان سلطان مصر المملوكى يهتم بتأمين حدود الدولة على أطراف الشام شمالاً وحتى اليمن جنوباً، وبإرسال السفن لتجوب البلاد، نجد أن الوالى أو نائب السلطنة أصبحت لديه اهتمامات جديدة مثل متابعة «نطاح الكباش»؛ وفى ذات الأيام نادى المنادون فى العاصمة باسم خاير بك أن «...كل من كان عنده كبش نطّاح يطلع به إلى القلعة يناطح بين يدى ملك الأمراء». وسخر الأهالى جميعاً يومهـ من حاكمهم واعتبروه صغير العقل «..استخف الناس عقل خاير بك على ذلك»؛ ولكن ذلك الاستخفاف لم يحل دون قيام مباراة النطاح؛ وأن يتابعه «خاير بك» بنفسه.

وإذا كانت مصر قد اهتمت من قبل بخوض المعارك ضد البرتغاليين الذين يحاولون اجتياح العالم الاسلامى؛ فإذا بذلك الاهتمام ينتقل إلى خوض المعارك والنضال ضد «الكلاب» فى القاهرة؛ والأمر حقيقة وليس مجازاً ولا تخيلاً أو تندراً؛ ففى يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الآخر ٩٢٤ هجرية ؛ ١٥١٨ ميلادية؛ فوجئ الأهالى بنداء غريب يوجه إليهم ويجوب القاهرة كلها؛ ومفاده أن «كل من رأى كلبًا يقتله ويعلقه على دكانه» وأخذ الناس فى تنفيذ ما طلب إليهم؛ إذ بدأت حملة للقبض على الكلاب واعتقالها، أما العثمانيون والأتراك فانطلقوا «يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم نصفين».. وحقق العثمانيون انتصارات باهرة حتى تردد أنهم قتلوا فى يوم النداء فقط «فوق الخمسمائة كلب» وعلقت جثث الكلاب على أبواب المحلات والدكاكين.. ورغم أن الأهالى نفذوا التعليمات وخاضوا المعركة ضد «الكلاب»، فإنهم كانوا يحاولون التخمين والبحث عن أسباب هذا العداء الذى ظهر مباشرة من «خاير بك» تجاه الكلاب؛ وأخيراً لم يجدوا إلا أن يقولوا أن ذلك عادة عثمانية وتجرى فى استانبول «إذا كثر عندهم الكلاب فى المدينة يقتلون منهم فى كل سنة جانبًا كبيراً فى أيام الخماسين ويزعمون أن بذلك يخف الطاعون من المدينة».

استمرت المعركة يومًا وليلة على أشدها؛ ثم تواصل القتال والقتل فى

الكلاب؛ وأخيراً بدأت مساعى السلام؛ بوقف القتل ووقف هروب الكلاب من القاهرة... «هجت الكلاب مما دهاهم إلى الترب والصحارى».

كان الزينى بركات بن موسى –المحتسب– هو الذى أخذ على عاتقه مهمة التوسط لدى ملك الأمراء؛ فصعد إلى القلعة وتشفع لديه؛ وبدا خاير بك متردداً فى العفو عن الكلاب ووقف المذبحة؛ لكن الزينى قدم له هذا الإنذار الحاد «لا تتعرض لقتل الكلاب؛ فإن أزبك أمير كبير تعرض لقتل الكلاب الذى كانوا بالأزبكية؛ فلم يعش بعد ذلك غير سنة واحدة ومات؛ وكان رد فعل الإنذار لدى خاير بك فورياً إذ خاف الرجل على حياته فتراجع على الفور؛ وأرسل المنادون فى القاهرة بأمر جديد مفاده «أن ترفعوا القتل عن الكلاب» ولم يكتف بذلك بل طلب إلى كل من سجن أو اعتقل كلباً أن يفرج عنه فى الحال «..وكل من قبض على كلب يتركه إلى حال سبيله».

وسعد الناس بالقرارات الجديدة؛ وامتنوا للزينى بركات ودعوا له جزاء ما فعل، فقد « شفع فى الكلاب من القتل»

هكذا انحسر دور مصر وهَم حاكمها فى أن يعقد مباراة للنطاح بين الكباش أو يخوض معركة حاسمة ضد كلاب المدينة. أما المظالم التى وقعت على الأهالى من مفاسد الحكام وهى أكثر من أن تعد؛ فقد حدث فى العام التالى مباشرة أن احتكر خايربك لنفسه حق شراء الخيار وبيعه؟ وفى أحد الحقول، نزل أحد الأهالى (كان يعمل مؤذناً بأحد المساجد) ليحصل على عدة «خيارات» كان قد استهواه خضرتها وجرى ريقه وسال لعابه عليها؛ ولسوء حظه أن رآه «خولى» الحقل «فقبض عليه الخولى وأتى به إلى بيت الوالى»، فقام الوالى مسرعًا وذهب إلى «ملك الأمراء» ليثبت له تفانيه فى حماية المحصول الذى احتكره لنفسه وأثبت «الملك» حسمًا فى الحكم... «رسم الوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق الخيار الشنبر..» ..واختار طريقة عجيبة لتنفيذ الحكم؛ إذ قام بتجريسه أولاً «أشهره الوالى فى القاهرة وعلق القفة التى فيها الخيار الشنبر فى رقبته وشق به من القاهرة حتى أتى به إلى القنطرة الجديدة التى بزقاق الكحل فشنقه هناك»؛ وكان الحقل يقع

عند تلك القنطرة وكل ما حدث يومها أن تأسف الناس عليه بأنه راح ظلماً؛ جرس وشنق بسبب عدة خيارات.

وقاسى المصريون الكثير والكثير من إذلال العثمانيين؛ كما وقع فى خان الخليلى فى تلك الفترة؛ فقد قبض شخص عادى من العثمانيين على مواطن واتهمه بالسرقة «زعم أنه قد سرق من جيبه أربعة أنصاف» فقبض ذلك العثمانى على المواطن؛ وحكى لملك الأمراء الواقعة دون دليل ولا شهود ولا أى شىء سوى «زعمه» هو «فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للوالى بأن يقطع يده؛ وقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة».

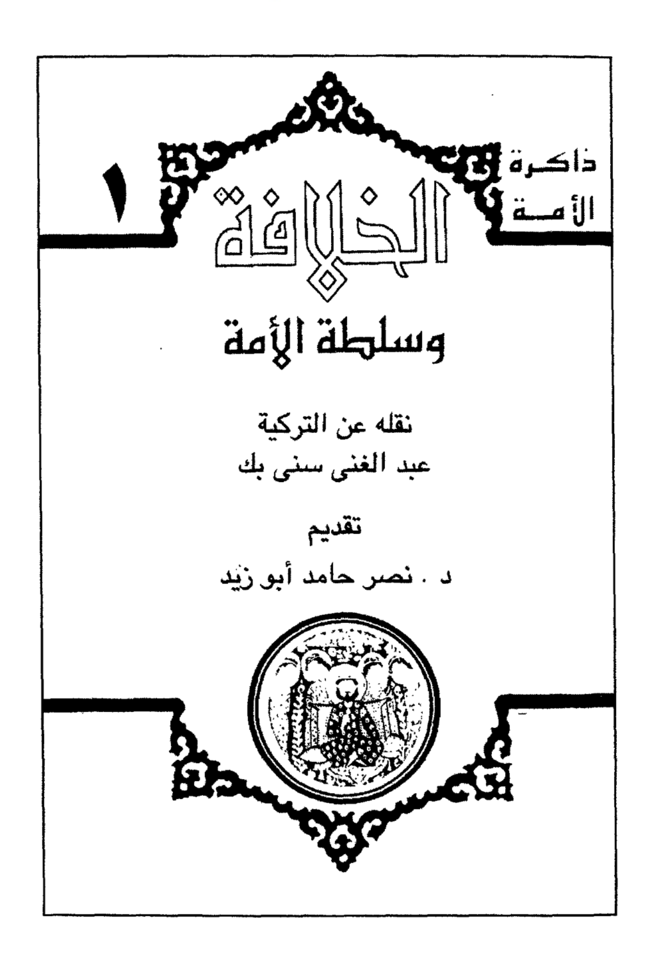
أما «ملك الأمراء» فكان يقضى الليل كله فى السكر والعربدة، وفى النهار كان يحكم بين الناس بنفس الطريقة «يصبح وهو مخمور، فيحكم بين الناس بالعسف والظلم ما لا يسوغ الشرع فى محاكماته».

كان ذلك يحدث فى بداية عهد الدولة العثمانية وهى فى أوج قوتها؛ فما بالنا حين تضعف بعد ذلك؛ ويزداد الاستبداد فيها؛ وتزداد سطوة الأمراء وضعف الولاة؛ وكان على المصريين أن يعيشوا فى هذا الجو الظالم والذى يزعم حكامه أنهم يعبرون عن روح الإسلام ويحكمون بمبادئهم وشرائعهم؛ واستمر الحال هكذا من سيء إلى أسوء لمدة أكثر من مائتين وخمسين عامًا حين جاء على بك الكبير ليدرك أهمية أن يستقل بمصر ويعيد لها دورها وكرامتها الوطنية.

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) راجع أحمد تيمور باشا «خيال الظل واللعب والتماثيل عند العرب» ؛ لجنة نشر المؤلفات التيمورية؛ يونية ١٩٥٧ ، ص ٢٣ .

الفهرس


ذاكرة
الأمة
١
الخلافة
وسلطة الأمة
نقله عن التركية
عبد الغنى سنى بك
تقديم
د . نصر حامد أبو زيد

دار الطباعة المتميزة

Advanced Press Tel. : 2979542

هذا الكتاب الذى بين يديك ليس كتاباً فى التاريخ ولا يطمح لأن يكون كذلك؛ ولكنه مجرد قراءة فى لحظة تاريخية عاشتها مصر وعاشها أبناؤها؛ لحظة نتجاهلها باستمرار أو نهرب منها؛ ثم جاء أخيراً بعض منا يحاولون تجميل هذه الصفحة ويطالبون باعادتنا ثانية وجرنا إلى مثلها.. متجاهلين أنها، حتى بمقياس ذلك العصر، كانت لحظة مهينة لمصر وللعرب وللمسلمين جميعاً!!

إن الذين يتباكون على الدولة العثمانية لا يتجاهلون فقط الممارسات البشعة للعثمانيين فى بلادنا حين وطأوها أول مرة، بل ويتجاهلون حقيقة أخرى هى أن الكفاح والجهود التى بذلها المصريون والعرب فى تاريخهم الحديث والمعاصر إنما كانت معظمها للخلاص من القهر ومن التخلف العثمانى الذى مازلنا نعانى بعض آثاره إلى اليوم!

بل إن الذين يتحدثون بفخر عن أن دولة الخليفة رفضت تسليم فلسطين لليهود، يتجاهلون ويتناسون أن «السلطان» هو الذى منح اليهود بعض الامتيازات فى دخول فلسطين ويتجاهلون ويتناسون أنه فعل أكثر من ذلك حين عرض على قادة الحركة الصهيونية أن يمنحهم «سيناء» ليؤسسوا عليها «الوطن القومى» وأن الذى اعترض هو المعتمد البريطانى كرومر بالإضافة إلى تراجع قادة الصهيونية..



